تاريخ الكعبّة

على مر العصور

د. عَلي حسِني الخربُطلى

الكتاب: تاريخ الكعبّة على مر العصور

الكاتب: د. عَلي حسِني الخربُطلى

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.comE-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الخربُطلى ، عَلي حسِني

تاريخ الكعبّة على مر العصور / د. عَلي حسِني الخربُطلى

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٢٤ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٧٠٧ / ٢٠٢٠

تاريخ الكعبّة
على مر العصور

مقدّمة

هذه هي دراسة علمية منهجية جديدة عن الكعبة ، وهي تبرز تاريخها ودورها في الحياة الدينية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية في العالمين العربي والإسلامي. وإن كانت الكعبة هي المكان المقدس عند ملايين المسلمين، وإذ هي قبلتهم في الصلاة، ومقصدهم في الحج، إلا أن تاريخها يرجع إلى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وقامت الكعبة بدور كبير بارز في تاريخ العصور السابقة لظهور الإسلام.

قام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ببناء الكعبة، بأمر من الله عز وجل، وأذن إبراهيم بالحج إلى الكعبة. ونزل جبريل عليه السلام من السماء بالحجر الأسود، كما كان قد فجّر بئر زمزم تكريماً لإسماعيل وأمه هاجر ، وكانت الكعبة هي العامل الرئيسي لقيام مكة، المدينة المقدسة. فقد كان إنشاء مكة على أساس ديني، وليس على أساس عمراني. إذ قامت في مكان محدود المساحة تحيطه الجبال من كل ناحية، ويفتقر إلى موارد المياه ووسائل الحياة.

وأصبحت الكعبة بعد بنائها مركز دين التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وتولاه إسماعيل وأبناؤه وأحفاده. وتطورت مكة وأصبحت مدينة ذات أهمية دينية وسياسية، ومركزاً لحياة إقتصادية واسعة النطاق، وشهدت الكعبة حولهاأسواقاً كثيرة ساهمت في الحياة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وتولت قبيلة جرهم ثم قبيلة خزاعة الإشراف على الكعبة، مما أتاح لها الفرصة لتولي الزعامة السياسية والإقتصادية في مكة. حتى ظهرت قبيلة قريش

في مكة، فدخلت الكعبة ومكة في دور جديد متميز. واكتسبت قريش أمجادها السياسية والحضارية من اشرافها على الكعبة، وتوليها شؤون الحج.

وفي عهد سيادات خزاعة، كانت النكسة، فاندثرت معالم دين التوحيد، وبدأت الوثنية، وأصبحت الكعبة داراً للأصنام والأوثان. وبلغت الوثنية ذروتها في العصر القرشي، ولكن كثيراً من المستنيرين من العرب أبدوا ألمهم من هذه النكسة الدينية، ودعوا العرب إلى العودة إلى دين إبراهيم الحنيف، فكانت الدعوة الحنيفية، وكان محمد عليه الصلاة والسلام في مقدمة هؤلاء الحنفاء الذين دعوا إلى إحياء دين التوحيد، والإبتعاد عن رذائل الجاهلية.

وفي عهد عبد المطلب، جد الرسول عليه الصلاة والسلام، تعرضت الكعبة لعدوان غادر، فقد قدم جيش حبشي كثيف تتقدمه الأفيال، لغزو مكة وهدم الكعبة، وتحويل الحجاج العرب إلى الكنيسة الفخمة التي بناها القائد الحبشي أبرهة الأشرم في مدينة صنعاء. وتدخلت العناية الإلهية لحماية بيت الله الحرام، فأخفقت حملة الفيل، وظلت الكعبة قائمة لتشهد بعد أربعين عاماً ظهور الإسلام.

كان مولد الرسول عليه الصلاة والسلام في عام الفيل، وشهدت الكعبة بشرى مولد الهدى، فقد قدم علي عبدالمطلب، رئيس قريش وزعيم مكة، عند الكعبة من يبشره بمولد حفيده، اليتيم الخالد، خاتم الرسل، وسيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.

وشهدت الكعبة ظهور الإسلام، وجهاد الرسول عليه الصلاة والسلام دعوة العرب إلى دين الحق والهداية ، ثم أصبحت الكعبة قبلة المسلمين في الصلاة. وشهدت الكعبة قدوم الرسولوالمسلمين معتمرين بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ ، ثم شهدتهم عند فتح مكة سنة ٨ هـ، حيث دالت دولة الأصنام

وإرتفعت رايات الإسلام. وشهدت الكعبة الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع.

وهذا الكتاب، يدرس تاريخ الكعبة منذ إنشائها في عهد إبراهيم وإسماعيل، حتى تاريخنا المعاصر. فيبدأ بذكر بعض الروايات والأساطير التي تحفل بها المصادر التاريخية القديمة عن بناء الكعبة. ثم يدرس الكتاب تاريخ بناء الكعبة بأيدي إبراهيم ويتحدث عن الحج إليها، ثم يدرس الكتاب دور الكعبة في قيام مكة، وتطورها وحضارتها. ويبرز تاريخ الكعبة في العصر القرشي.

ويقدم الكتاب دراسة علمية جديدة فريدة لحملة الفيل التي كان لما دويها وأثرها في تاريخ الجزيرة العربية والعالم كله، حتى أن العرب كانوا يؤرخون أحداثهم بها. ويقدم الكتاب فصولًا عن تاريخ بئر زمزم، وعن الحج إلى الكعبة قبل الإسلام، وعن الدعوة الحنيفية التي واجهت نكسة الوثنية ودعت إلى تطهير الكعبة من الأصنام.

وينتقل الكتاب إلى دراسة تاريخ الكعبة بعد ظهور الإسلام، ودورها في الدعوة الاسلامية، فقد شهدت الكعبة تتويج إنتصارات الرسول والمسلمين بفتح مكة سنة ٨ هـ وانتهاء عهد الوثنية ، ثم يدرس الكتاب مظاهر إهتمام الدول الإسلامية على مر العصور التاريخية بالكعبة وتنظيم الحج. ويبرز الكتاب المراحل المختلفة التي مرت الكعبة بها في تاريخها الطويل، وتجديد بنائها في العصر الجاهلي وفي العصور الإسلامية. كما يخصص الكتاب فصلًا عن كسوة الكعبة عبر العصور.

وبعد، فهذه بعض ملامح الكتاب، وقد إعتمدنا في دراستنا أساساً على القرآن الكريم، وعلى كتب السنة النبوية الشريفة، ثم على المصادر التاريخية والدينية والأدبية، كما إطلعنا على بعض المراجع الحديثة، العربية والإفرنجية ،

ونرجو أن يجد كل باحث، وكل قارىء، وكل مسلم في كتابنا هذا الفائدة المرجوة. والله عز وجل ولي التوفيق.

د.علي حسني الخربوطلي

١- روايات حول الكعبة قبل إبراهيم

قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة بعد نزوحهما من فلسطين إلى بلاد الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى. وهو ما يؤكده القرآن الكريم، ويجمع عليه المؤرخون. ولكن يحلو لبعض المؤرخين أن يذكروا بعض الروايات التي تدور حول تاريخ بناء الكعبة، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولًا وجذوراً تمتد إلى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل، ويصبح الخيال الواسع عنصراً بارزاً في بعضالروايات. وإختلاف بعض الروايات وتناقضها، وعدم موافقتها للكتب السماوية، يجعلنا لا نؤمن بصحتها. ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة لا نرى بأساً من أن نذكر بعض هذه الروايات التي حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم وهي محط أنظار القراء في كل زمان وحتى يمكننا أن نناقش هذه الروايات وتحكم عليها حكماً تاريخياً منهجياً.

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام إلى ابنه "شيث" ولكن هذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلي قديم وجميع الشواهد تؤكد أن وادي مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذي زرع، ولايسكنه أحد، لعدم توافر وسائل الحياة.

أما المؤرخون الذين ينسبون بناء البيت إلى الملائكة فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم: "إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبح يحمدك ونقدس لك" وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا

رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويكون اشفاقًا من هذا الغضب وطافوا بعرش الله سبعًا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك، ربنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك» فنظر الله عز وجل إليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتًا هو البيت المعمور ثم قال للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة كما يذكر المؤرخون، من سكان الأرض، أن يبنوا في الارض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجون إليه. فلما حج آدم إلى هذا البيت قالت الملائكة له: «بر حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام».

وروى العمري في كتابه «مسالك الأبصار» "[1]" عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة وكان عرشه على الماء على زبدة بيضاء فدحيت من تحته» وأسند العمري هذه الرواية أيضًا إلى مجاهد وقتادة والسدى.

وأسند العمري إلى قتادة أنه قال: «ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم وحين أهبط معك بيتي يطاف به حول عرشي. فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين حتى إذا كان زمن الطوفان رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض، فصار معمورًا في السماء. ثم إن ابراهيم تتبع منه أثرًا بعد ذلك، فبناه

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ ١ ص ٩٣ «طبعة دار الكتب ١٩٢٤».

على أساس قديم كان قبله» "١".

وقال عطاء بن أبي رباح: وجه آدم إلى بكة "٢" حين استوحش فشكا ذلك إلى الله عز وجل في دعائه. فلما انتهى إلى بكة انزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه فذلك قوله تعالى: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت». ويسند العمري هذه الرواية إلى أبي عروبة. وروى أبو الوليد الأزرقي بسنده عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي بناء في الأرض تمثال البيت وقدره. وأمر الله من في الأرض من خلقه أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. قال: وكان هذا قبل خلق آدم عليه السلام والله أعلم "٣".

ومن الروايات التي تدور حول بناء آدم البيت، رواية تفرد ابن لهيعة في نسبتها إلى الرسول أنه قال: «بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتًا فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى إذا أجابه الماء نودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت. ثم تناسخت القرون حتى رفع ابراهيم القواعد فيه.

وينسب ابن قتيبة في كتابه «المعارف "٤" بناء الكعبة إلى شيث بن آدم،

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٣.

(٢) أي مكة.

(٣)مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤.

(٤)المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ١٩٣٤).

فروى «كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه وكان وصي أبيه وولي عهده وهو الذي ولد البشر كلهم إليه انتهى أنساب الناس، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة» ويروي العمري "[1]": «وقيل إن آدم أول من بناها –أي الكعبة – وقيل شيث بن آدم، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء، يطوف بها آدم». ولكن العمري بعد أن عدد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون ولا نرى بأسًا من ذكر بعضها، فيذكر المؤرخ المسعودي أن قوم عاد لما أصابهم القحط «وفدوا إلى مكة يستسقون وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يشيد بناءها إبراهيم وكان ربوة حمراء» وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين فيذهبون إلى أنه كان في مكان الكعبة معبد قديم للعماليق اندثر واختفى قبل قدوم إبراهيم إلى بلاد الحجاز مما جعل هذه البلاد موضع تقديس حتى أن المصريين القدماء سموا بلاد الحجاز «البلاد المقدسة».

قبل الكعبة كان لبعض الأنبياء بيوت فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم وكان لإبراهيم بيوت في وطنه، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد وفيه آيات بينات.

---

(١)مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٤.

٢ - بناء ابراهيم وإسماعيل الكعبة

قدوم إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز:

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ونزوحهما من فلسطين إلى مكة ببلاد الحجاز، مما يجعلنا نشير إلى قصتهما في إيجاز:

نشأ ابراهيم في بلاد العراق وكان ابوه نجارًا تخصص في صناعة الأصنام التي كان يعبدها مواطنوه وكان اشتراك ابراهيم مع أبيه في تشكيل الأوثان دافعًا على العزوف عن عبادتها. حتى إذا أصبح شابًا تسلل إلى المعبد وحطم الأصنام عدا كبيرها، وسأله مواطنوه «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون» "[١]". وعاقب الوثنيون إبراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه في النار ولكن الله عز وجل جعلها بردًا وسلامًا. وخرج إبراهيم إلى فلسطين ناجيًا بنفسه وبزوجه سارة.

ثم رحل إبراهيم إلى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس «العماليق» وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن. وأعلن إبراهيم بين الناس أن سارة أخته حتى ينجو من القتل. وانتزع الملك سارة من إبراهيم، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بإبراهيم، فرأى الملك في نومه أن سارة ما هي إلا زوجة إبراهيم، فندم وأعادها إلى زوجها ومنحه كثيرًا من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ و ٦٣.

وكانت سارة لم تنجب لإبراهيم ودفعتها عاطفة الأمومة إلى أن تطلب من إبراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلامًا يقر الله به عيونهما فأنجب إبراهيم من هاجر ولدًا اسموه إسماعيل. وبعد فترة أنجبت سارة ابنها إسحاق.

وتساوى عطف إبراهيم على ولديه إسماعيل وإسحاق ولكن سارة غضبت من أن يساوي زوجها بين ابن جاريتها وابنها، وهي الحرة. وأصرت سارة على أن يخرج ابراهيم بهاجر واسماعيل بعيدًا عنها. فخرج بهما من فلسطين إلى الحجاز، وانتهى إلى الوادي الذي قامت فيه مكة فيما بعد. وكان واديًا قفرًا غير ذي زرع تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية وفي ذلك يقول الطبري"[1]: «وأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتي مكة وليس يومئذ بمكة بيت» وترك إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر بعد أن ترك لهما اليسير من الطعام والماء وعاد إلى فلسطين حيث ترك سارة وإسحاق.

تحدث المؤرخ المسعودي"[2] عن المكان الذي نزل فيه إبراهيم وهاجر واسماعيل فقال: «ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بوادٍ غير ذي زرع كان موضع البيت ربوة حمراء، أمر ابراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشًا يكون لها مسكنًا».

وفرغ الطعام والماء وتعالت صيحات الطفل وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشًا وجوعًا وغادرت مكانها لتبحث عن الماء، مما يدفع عنهما الهلاك وأخذت تهرول بين الصفا والمروة حتى إذا أتمت السعي سبع مرات عادت إلى إسماعيل فإذا به يفحص الأرض بقدمه حيث نبع الماء من الأرض، وظهرت بئر

---

(١) الطبري جـ ١ ص ١٧٩.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٧.

زمزم، وكتب الله لإسماعيل وأمه النجاة.

ويروي الطبري أن الله عز وجل أنزل جبريل ففجر هذه البئر وقد بشر جبريل هاجر بعودة ابراهيم في يوم ما وبنائه الكعبة قال الطبري"[١]: «وقال لها الملك: لا تخافي الظمأ على أهل هذا البلد فإنها عين لشرب ضيفان الله أن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله بيتًا هذا موضعه».

وصادف أن مرت قبيلة جرهم بهذا المكان فشاهدت طيورًا تحلق في السماء فأدركوا أن هناك ماء ، وعجبوا من ذلك فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفرًا جدبًا ، وعثرت جرهم على هاجر وابنها واستأذنوا منها في الإقامة إلى جانب هذه البئر فأذنت لهم وشب إسماعيل في قبيلة جرهم وتعلم منهم اللغة العربية فيقول المسعودي"[٢]" : « وأذنت لهم في النزول فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم وأخبروهم خبر الماء ، فنزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء ، مما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام، فرحين «وعيل إسماعيل وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه».

مقدمات بناء الكعبة:

مرت السنون وماتت هاجر وهي في التسعين من عمرها. وأصبح إسماعيلشابًا يافعًا وتزوج إحدى فتيات قبيلة جرهم وتدعى الجداء بنت سعد. وفي يوم اشتاق إبراهيم لرؤية ابنه إسماعيل فاستأذن من زوجته سارة في الرحيل، فأذنت له. وقصد إبراهيم إلى دار إسماعيل وكان حينئذ غائبًا في رحلة صيد: وطرق إبراهيم الباب فخرجت له الجداء فقال لها إبراهيم: أين صاحبك؟ قالت:

---

(١)الطبري جـ ١ ص ١٨١.

(٢)الطبري جـ ١ ص ٤٨.

ليس هاهنا، ذهب يتصيد. فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة، هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي، وما عندي أحد. فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه. وعاد إسماعيل من رحلته وعلم بالقصة فطلق زوجته وتزوج من فتاة جرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل "[1]".

ودفع الشوق إبراهيم إلى القدوم مرة أخرى إلى مكة ليرى ابنه اسماعيل وأذنت له سارة بذلك واشترطت عليه ألا ينزل عن جواده، فجاء ابراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فأنزل يرحمك الله. قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم. قال: هل عندك خبز أو بر أو شعير أو تمر؟ فجاءت باللبن واللحم. فدعا لهما بالبركة . فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو تمر أو شعير لكانت أكثر أرض الله برًا أو شعيرًا أو تمرًا "[2]".

ويروي المسعودي"[3]"رواية عن تبشير إبراهيم ببناء الكعبة فروى : «وألحت الجرهمية على إبراهيم في النزول فأبى ، فقدمت إليه لبنًا وشرائح من لحم الصيد، فدعا له بالبركة وجاءته بحجر كان في البيت فمال عن ركابه وجعلته تحت قدمه اليمنى ثم رجلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه أيضًا و مال برأسه نحوها فرجلته ودهنته فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت من شاهدته و هذا الحجر هو مقام إبراهيم فقال لها إبراهيم : أرفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين . ثم قال لها: إذا جاءك إسماعيل فقولي له: إن

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٨.

(٢)الطبري جـ ١ ص ٤٨.

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٤٨.

إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك: احتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبةهي، وسار إبراهيم راجعًا نحو الشام».

تطورت مكة وزاد عدد سكانها فقد علمت بطون جرهم والعماليق بحلول الماء والخصب في مكة فأقبلوا على النزول بها وأصبح الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي زعيم أهل مكة "[1]".

بناء الكعبة:

قدم ابراهيم مرة أخرى إلى مكة وكان إسماعيل حينئذ في الثلاثين من عمره وفي هذه المرة أمر الله عز وجل إبراهيم بناء الكعبة، وتعاون الأب والابن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى.

وروى المؤرخون كثيرًا من الروايات حول بناء الكعبة. ومن أدق هذه الروايات وأوجزها ما رواه الطبري "[2]" عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: وجاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم. فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن ابني له بيتًا. فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك. فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني عليه. قال: إذن أفعل. فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام إبراهيم فجعل يناوله ويقولان: تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل ببنائه أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال له: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٧.

(٢) الطبري جـ ١ ص ١٨٢.

كل فج عميق». ولكن الطبري روى روايات أخرى كثيرة لا تختلف عن الروايات الأول في جوهرها، ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل. وتعددت الروايات، واختلفت في بعض عناصرها وتفاصيلها. وتختلف الروايات حول من دل إبراهيم إلى المكان الذي أقام فيه الكعبة وهل هي ريح السكينة أو جبريل عليه السلام؟ من هذه الروايات: «أن رجلًا قام إلى علي بن أبي طالب فقال ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا وإن شئت انبأتك كيف بني، إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتًا في الأرض: فضاق إبراهيم بذلك ذرعًا فأرسل عز وجل السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطوت على موضع البيت كتطوي الحية وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم» "[1]".

ويروي الطبري عن ابن اسحاق أن جبريل سحب إبراهيم من الشام إلىالحجاز ليدله على مكة التي ستقام فيها الكعبة وأسند هذه الرواية إلى ابن اسحاق فقال: عن مجاهد وغيره من أهل العلم، إن الله عز وجل لا بوأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم، خرج وخرج معه جبرائيل يقال كان لا يمر بقرية إلا قال: بهذه أمرت يا جبرائيل؟ فيقول جبرائيل: أمضه. حتى قدم به مكة وهي إذ ذاك غضاة سلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال إبراهيم لجبرائيل: أهاهناأمرت أن أضعهما؟ قال: نعم» "[2]"

(١) الطبري جـ ١ ص ١٧٦.

(٢)الطبري جـ ١ ص ١٧٨.

ويروي العمري "[1]عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن قواعد البيت من حراء وذكر لنا أن البيت من خمسة أجبل: حراء ولبنان والجودي وطورسينا وطورزيتا» كما روى العمري أيضًا عن السهيل: «أن الملائكة كانت تأتي إبراهيم عليه السلام بالحجارة».

الحجر الأسود:

مضى إبراهيم واسماعيل في بناء الكعبة كما أمرهما الله عز وجل وأوشك البناء أن ينتهي وبقي حجر واحد «فذهب الغلام يبني شيئًا فقال إبراهيم: لا أبغ حجرًا كما أمرك فأنطلق الغلام يلتمس له حجرًا فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبرائيل من السماء» "[2]".

ويروي الطبري "[3]" رواية أخرى لا تختلف في جوهرها عن الرواية السابقة ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل وقد أسندها الطبري إلى علي بن أبي طالب فقال: «فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو واسماعيل حتى انتهيا إلى موضع الركن. فقال إبراهيم لإسماعيل: يا بني أبغ لي حجرًا أجعله علمًا للناس فجاءه بحجر فلم يرضه. وقال: أبغي غير هذا. فذهب إسماعيل ليلتمس له حجرًا، فجاءه فقد أتى بالركن فوضعه في موضعه فقال: يا أبت من جاءك بهذا الحجر؟ قال: من لم يكلني إليك يا بني».

والحجر الأسود حجر صقيل بيضي غير منتظم ولونه أسود يميل إلى

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤.

(٢)الطبري جـ ١ ص ١٧٦.

(٣)الطبري جـ ١ ص ١٧٧.

الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ويقول أحد الكتاب "[1]" «هذا الحجر قد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألأ نورًا فأضاء شرقًا وغربًا وشامًا ويمنًا إلى منتهى أنصاب الحرم. وتلألؤه الموصوف دليل على أنه كان ذا لون غير السواد، ولكن بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وأرجاسها. وبعض النيازك يتغير لونها بمجرد مرور الزمن عليها ومنها ما يتلألأ ويلمع . والكلمة من أصل فارسي «ينزه» وهو أحد أقسام الشهب والشهاب ما يرى كأنه كوكب انقض من السماء وتكثر في شهر آب».

ويرى كاتب أخر "[2]"أن تقديس الحجر الأسود نجم من ارتباطه بشيء مقدس محترم فهذا الحجر الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الكعبة إما أن يكون قد وضعه تذكارًا لصدعه بأمر ربه حين أمره برفع قواعد هذا البيت المعظم وإما أن يكون رمزًا للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت بمثابة للناس وآمنًا، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم عليه السلام حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدًا للطائفين والعاكفين والركع السجود. ولذا وضعه في الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذي يبتدئ منه الطائفون واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه لذلك كان الحجر الأسود محترمًا من إبراهيم محترمًا من ولده مقدسًا عند المسلمين إلى اليوم وإلى الغد.

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر الأسود فقال: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع» ثم قبله. ولما حج أبو بكر وقف عند الحجر وقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر

---

(١)لطفي جمعة: ثورة الإسلام ص ٥٩.

(٢)الهجرسي: كتاب الحج ص ٢٥.

ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك. وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند حجه بالناس.

وصف الرحالة ابن بطوطة "[1]" الحجر الأسود كما شاهده خلال رحلته إلى مكة فقال: «وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة الشرق، وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن، وفيه أربع قطع ملصقة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسنًا باهرًا. ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ويود لائمه إلا يفارق لثمة خاصة مودعة فيه وعناية ربانية به. وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يمين الله في أرضه «نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق إليه» وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية ونرى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحامًا على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف إذا استلمه تقهقر عنه قليلًا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو إلى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو إلى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو إلى جهة الجنوب ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهةالشرق».

الكعبة بعد تمام بناتها:

(1) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٧ «الطبعة الأميرية ١٩٣٩».

أتم إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة ووصف المؤرخ المسعودي "١" البيت الحرام بعد تمامه فقال: «.. وطوله ثلاثون ذراعًا والحجر فيه وهو سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعًا، وسمكه سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعًا وسمكه سبعة أذرع وجعل له بابًا ولم يسقف. ووضع الركبة موضعه وألصق المقام بالبيت وذلك قوله عز وجل: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل» –الآية. وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج».

ووصف صاحب كتاب «تاريخ الكعبة المعظمة» بيت الله الحرام بعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل من بنائه وصفًا مفصلًا فقال: إن إبراهيم جعل ارتفاع البيت إلى اليسار تسع أذرع وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعًا ومن الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الغربية أيضًا إحدى وثلاثين ذراعًا ومن الشرق إلى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية أي من الحجر الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعًا ومن الشرق إلى الغرب أيضًا مما يلي الجهة الشمالية أي من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعًا وجعل له بابين ملاصقين للأرض أولهما في الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود والأخر من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سمت الباب الشرقي وحفر في داخله بئرًا تكون خزانة له و جعل عليه سقفًا ولا وضع على بابيه أبوابًا تفتح وتغلق.

ويعلق أحد الكتاب "٢" على حفر إبراهيم هذه البئر لتكون خزانة للكعبة فيقول وقد ظهر حرص إبراهيم في البناء وقصده إلى أن يكون البيت معبدًا لله فحسب حساب النذور فحفر في بطن البيت على يمين من دخله حفرة تكون

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩.

(٢) لطفي جمعة: ثورة الإسلام ص ٥٩.

خزانة البيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت.

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة. ففي سورة آل عمران: «إن أول بيت وضع للناس، للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين».

ابراهيم يؤذن بالحج إلى الكعبة:

بعد الفراغ من بناء الكعبة أمر الله عز وجل إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج كما جاء في الآية الكريمة: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضام يأتين من كل فج عميق» وروى الطبري "١" عن ابن عباس أن إبراهيم قال: يا رب وما يبلغ صوتي فقال عز وجل أذن وعلى البلاغ فنادى إبراهيم: يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض.

وروى الطبري "٢" أيضًا أن عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثي عما بلغه عن دعوة إبراهيم الناس إلى الحج فقال: «بلغني أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهي إلى ما أراد الله من ذلك وحضر الحج استقبل اليمن فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك ثم إلى المغرب فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك».

و روى الطبري "٣" أيضًا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: « أتى جبرائيل إبراهيم يوم التروية فراح به إلى منى فصلى به الظهر و العصر والمغرب

---

(١)الطبري جـ ١ ص ١٨٢.

(٢) الطبري جـ ١ ص ١٨٢.

(٣)الطبري جـ ١ ص ١٨٤.

و العشاء الآخرة والفجر بمنى ثم غدا به إلى عرفات فأنزله الأراك أو حيث ينزل الناس فصلى به الصلاتين جميعًا الظهر والعصر ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض حتى أتى به جمعًا فصلى به الصلاتين جميعًا المغرب والعشاء ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلي أحد من الناس الفجر صلى به ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين الفجر أفاضبه إلى منى فرمى الجمرة ثم ذبح و حلق ثم أفاض إلى البيت ثم أوحى الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم «إن أتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين» .

وبعد بناء الكعبة عاد إبراهيم إلى بلاد الشام وترك وراءه ابنه إسماعيل وقد أصبح رجلًا وخليفة أبيه في أمانته وملته الحنيفية. ثم كان تطور مدينة مكة وقد قامت يا واد رملي شديد الضيق حتى ليبلغ أقصى اتساع منه نحو سبعمائة خطوة وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة قدم.

٣ - الكعبة بعد اسماعيل

تقديس العرب والهنود والفرس والصابئة للكعبة:

كان العرب في بداية الأمر يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل بأمر من الله عز وجل. وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها حتى أصبحت الأراضي الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حرامًا لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أو حيوان.

روى ابن الكلبي "١" أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا أحتمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيم للكعبة وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنًا منهم بها وصبابة بالحرم وحبًا له وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار».

وكان العرب يرحلون من كل مكان في الجزيرة العربية في موسم الحج من كل عام إلى مكة لتأدية فريضة الحج ولحضور الأسواق التجارية التي كانت تعقد دائمًا في مواسم الحج وتشهد نشاطًا اقتصاديًا وثقافيًا.

بل امتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهنود والفرس. فقد كانالهنود يعتقدون أن روح «شبوه» أحد آلهتهم قد تقمصت في الحجر الأسودحين زار هو وزوجته بلاد الحجاز ويسمون مكة «مكشيشا» أو موكشيشا أو «موكشيشانا» أي بيت شيشا أو شيشانا وهما من آلهتهم.

---

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام.

كان الفرس أيضًا يقدسون الكعبة ويعتقدون أن روح «هرمز» حلت فيها ولذا كانوا يحجون إلى الكعبة. ويذكر المؤرخ المسعودي أن الفرس كانت تعتقد أنها من ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيمًا لجدهم إبراهيم، وكان أخر من حج منهم ساسان بن بابك. ويذكر ياقوت الحموي "[1]أن بئر زمزم سميت بهذا الاسم لأن الفرس كانت تحج إليها في الزمن الأول فزمزمت عليها والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء. وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على هذه البئر، وفي ذلك يقول الشاعر القديم:

زمزمت الفرس على زمزم وذلك في سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بتقديسهم الكعبة وحجهم إليها فأنشد أحدهم:

وما زلنا نحج البيت قدمًا ونلقى بالأباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق بأصيدينا

وطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروي الشاربينا

وكانت الصابئة وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة. وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم.

---

(١)معجم البلدان جـ ١ ص ١٩.

الكعبة بعد إسماعيل:

كانت زوجة إسماعيل الثانية هي ابنة زعيم قبيلة جرهم مضاض بن. عمرو وقد رزق منها اثني عشر ولدًا هم: نابت وقيدار وأدبيل ومبسم ومشمع ودوما ودوام ومسا وحداد وثيثا ويطور ونافش "[1]"ثم مات وعمره ١٣٧ سنة ودفن في المسجد الحرام في الحجر حيال الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود على مقربة من قبر أمه هاجر "[2]".

وبعد وفاة إسماعيل قام بالإشراف على الكعبة ابنه نابت ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا في التغلب على أولاد إسماعيل. تحدث ابن هشام في سيرته عما حدث لأولاد اسماعيل وجرهم بعد ازدياد عددهم فقال: «ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لحئولتهم وقرابتهم وإعظامًا للحرية أن يكون بها بغي أو قتال. فلما ضاقت مكة على ولد اسماعيل انتشروا في البلاد فلا يناوئون قومًا إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، فوطئوهم».

كان أول من تولى شؤون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض وكان ينزل مكانًا على مشارف مكة يدعى «قيقعان» وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها. في حين كان ملك العماليق يدعى السميدع ابن هوبر وكان ينزل في أسفل مكة يستولي على أعشار التجارة التي تدخل إلى مكة من جهته، وثار النزاع بين الملكين ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون في استعادة نفوذهم وظلوا يشرفون على الكعبة، ثلثمائة سنة، وكان

---

(١)الطبري جـ ١ ص ٢٢١.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠.

أخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر، وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام"[1]".

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت وتهاونت في المهمة الكبرى الموكولة إليهمفاستولوا على أموال الكعبة ونذورها وأساءوا إلى الحجاج، وتعالت أصوات الحجاج بالشكوى والاحتجاج، وكانت العناية الإلهية تحيط ببيت الله الحرام.

فعاقب المولى عز وجل جرهماً على طغيانها وتجبرها «فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم »"[1]".

ونجح أولاد إسماعيل في أن جمعوا شملهم ويوحدوا صفوفهم ونجحوا في التغلب على قبيلة جرهم وأخرجوهم من مكة فلحقوا يجهينة، فأتاهم السيل في بعض الليالي فذهب بهم، وكان الموضع الذي يقيمون فيه يسمى «اضم»وصف أمير جرهم الحارث بن مضاض الأصغر ما حل

به وبقومه فأنشد"[2]":

كـأن لم يكن بين الحجون إلى ... الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامـر

بل نحن كنا أهلها فأبادنـــــــــا ... صـــروف الليالي والجدود العواثر

وكنا لإســـماعيل صـــهراً ووصـــلة ... ولمـا تـدر فيهـا علينـا الـدوائر

وكنا ولاة البيت من بعد نابتنطوف ... بـذالـك البيـت والخير ظـاهر

فبـدلنـا ربى بهـا دار غربـة بهـا ... الـذئب يعوي والعدو المحاصـــر

ثم صارت ولاية الكعبة في ولد اياد بن نزار بن معد، ولكن قامت حروب عنيفة

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص ٥٠

٢ المصدر السابق

طويلة بين مضر واياد انتهت بإنتصار مضر ورحيل اياد عن مكة إلى بلاد العراق"[1].

ولاية خزاعة على الكعبة:

كانت قبيلة خزاعة تنزل تهامة حتى ثارت الحرب بين اياد ومضر ابني نزار وشعرت اياد بضعفها وقرب هزيتها فخلعت الحجر الأسود من مكانه ودفنته في بعض المواضع. ورأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها فأعلموا مضراً أنهم يعلمون المكان الذي أخفت فيه اياد الحجر الأسود وأنهم يشترطون لإخبارهم بمكانه أن يعترفوا لهم بولاية أمور الكعبة ونزلت مضر على رأيهم وأصبح الإشراف على الكعبة منذ ذلك الحين لخزاعة"[2].

يروي المؤرخون أن عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي أدخل عبادة الأوثان في مكة، فيروون أنه لما ساد قومه في مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة رحل إلى مدينة البلقاء بالشام ليستشفي من مرض أصابه، فرأى أهلها يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأوثان الذي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها نستنصرها فتنصرنا ونستسقي بها فنسقى. فقال: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تفد إليه العرب؛ فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة"[3].

كان عمرو بن لحي ثمرة زواج خزاعة وجرهم، فقد تمت مصاهرة بين القبيلتين فتزوج أمير من خزاعة بأميرة من جرهم فولد لهما عمرو بن لحي الذي أصبح أميراً لمكة وإتسع نفوذه إلى حد كبير ولم يبلغ هذا النفوذ في العصر الجاهلي سوى قصي بن كلاب وعبد المطلب، وخضعت كثير من القبائل العربية

---

١ مروج الذهب جـ٢ ص ٥١

٢ مروج الذهب جـ٢ ص ٥٩

٣ اليعقوبي جـ١ ص ٢١١.

لطاعة عمرو.

وكان العرب بمكة وما حولها فقد تهاونوا في عقيدتهم الحنيفية دين التوحيدالذي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل، وأراد عمرو أن يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة تحل محل الدين القديم. وقد رأى تساهل قومه فيه بعد تقادم الزمن ومرور السنوات العديدة. وكان عمرو كثيراً ما رحل إلى الدول المجاورة في الشام والعراق وغطلع على أحوالها وشاهد عقائدهما الوثنية، ورأى فيها وسيلة لإيجاد سند دنيوي مادي يعتمد عليه في تدعيم نفوذه السياسي .

ولذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل وأقام الأوثان عند الكعبة ونصب كبيرها هبل في بطن الكعبة وتعالت أصوات إحتجاج من بعض العرب وخاصة عرب جرهم يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التي إبتدعها زعيمهم فأنشد رجل من جرهم كان يتمسك بدين الحنيفية"[1]":

يا عمرو لا تظلم بكـــــــــــــة أنـــهـــا بـــلـــد حـــرام

سائل بعاد أين هـــــــــــــم وكـذاك تختـــــــــــرم الأنـام

وبنى العماليق الـــــــــــــذ ين لـهـم بـهـا كـان الســـوام

ولما أسرف عمرو بن لحي في نصب الأصنام حول الكعبة وأجبر العرب على عبادتها مما هدد دين الحنيفية أنشد شحنة بن خلف الجرهمي"[2]":

يا عمرو انك قد احدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابًـــا

وكـان للبيـت رب واحـد أبـدًا فقد جعلت له في الناس أربابًا

---

١ مروج الذهب جـ٢ ص ٥٦

٢ مروج الذهب جـ٢ ص ٥٦.

لتعرفن بأن الله في مهـــــــــل سـيصـطفي دونكم للبيت حجابًا

ولكن عمرو بن لحي نجح في إخماد أصوات الإحتجاج ماكان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية وإقتصادية واسعة واستمرت قبيلة خزاعة تلي شؤون الكعبة وتمارس الوثنية حوالي خمسة قرون"[1]".

نكسة الوثنية:

كانت دعوة إبراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة. فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد ولم يبدأ عقيدة البقاء، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهد الكهانات والهياكل. وكان توحيد إبراهيم إيماناً باله يعلو على ملوله الأرض ونجوم السماء ويتساوى عنده الخلق جميعاً.

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ولكن البداءة قد بدأت وسارت في طريقها، ولولا انها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيها بعد ذلك"[2]".

عفا الزمان على دين إبراهيم الحنيف وعلى تقديس الكعبة وبدأ عصر الوثنيةوتقديس الأصنام ويذكر بعض المؤرخين أنه لا كانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء، منحدرة لذلك من بعض النجوم فقد إتخذت أول أمرها مظاهر لهذه الألهة الرفيقة وقدست بهذه الصفة ثم قدست لذاتها، ثم كانت عبادة الأحجار حتى كان العربي لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة بل كان يأخذ معه في أسفاره أي حجر من أحجار الكعبة

---

١ العقاد: أبو الأنبياء ص ٢٤١.

٢ العقاد ابو الأنبياء ص ٢٤١.

يصلي إليه ويستأذنه في الإقامة والسفر ويؤدي إليه كل ما يؤدي للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ومن ثم إستقرت الوثنية وقدست التماثيل وقدم العرب لها القرابين"[١]".

قامت عبادة الأوثان في الجزيرة العربية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض، والسماء والنجوم والكواكب. ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم في حياتهم تحت تأثيرها لذلك حرصوا على إرضائها اجتلاباً لخيرها. فاتخذوا لها أشكالًا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل إنساناً أو حيواناً: وأخرى غير مصورة وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز للقوة الطبيعية، ومن ثم أصبحت معبودات لهم. وكانوايطوفون حولها ويتاجرون عندها ويعتبرونالمكان الذي فيه المعبود حرماً يحرم الإتيان فيه بأشياء معينة"[٢]".

وصف المؤرخ المسعودي"[٣]"مطلع الوثنية في مكة فقال: «ووليت خزاعة أمر البيت وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي فغير دين إبراهيم وبدله

وبعث العرب على عبادة التماثيل، فخرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة وقويتخزاعة وعم الناس ظلم عمرو بن لحي.

و«التماثيل» و«الأصنام» كلمتان مترادفتان وهي أحجار ومعادن كانت تنحت نحتاً وتصنع صناعة على أشكال وصور وهذا يعني أن العرب كانوا يطلقون اسم الأصنام، أو التماثيل على ما هو مخلق من الأوثان وأنهم كانوا يعرفون

---

١ هيكل: حياة محمد ص٥٤.

٢ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ٤٨.

٣ مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦.

مسميات اللفظين. وقال البعض أن الأنصاب هي الأحجار المنصوبة للعبادة، كما قال بعضهم أنها مرادفة للأصنام ومن المرجح أنها تعني المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة أو غير مخلفة.

لم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم و قرابينهم. بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نصباً في بيته يطوف به حين خروجه وساعة اوبته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر. وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أم حولها وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تقرب بها إلى الله وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام"[1].

وكان العرب يدركون أن هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوة ولكنهم إعتبروها ديانة تقليدية وراثية وجزءاً من عاداتهم المتوارثة فكانوا يقولون عنها أنها ديانة الآباء والأجداد. قال الله تعالى في سورة الأنبياء: «إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين».

وكان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير في العادات التي ورثها العرب عن آبائهم وأجدادهم وتمسكوا بها طوال تاريخهم الجاهلي ولم يجهدوا أنفسهم لمعرفة حقيقتها.

---

١ هيكل: حياة محمد ص ٤٤.

٤ ـ الكعبة في العصر القرشي

ولاية قريش للكعبة:

ظلت خزاعة تتولى شؤون الكعبة حتى برزت قبيلة قريش وإستطاعت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها. وقريش هم ولد النضر بن كنانة، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصي بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة من القرش وهو التجمع.

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشاً الذين منهم قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه إلى عدنان وينتهي إلى إسماعيل عليه السلام. وإلى ذلك يشير الحديث النبوي الكريم: «اختار الله من إسماعيل كنانة واختار قريشاً من كنانة واختار بني هاشم من قريش واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار».

كان قصي رجلًا حازماً طموحاً تزوج من حبى ابنة خليل بن حبشية زعيم خزاعة، وكان يتولى أمر الكعبة ومكة، وبدأ قصي يعمل على أن يكون الرجل الأول في مكة، فيروي الطبري"[١]": «فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر وأن قريشا فرعة إسماعيل بن إبراهيم وضريح ولده،فكلم رجالًا من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومه يدعوه إلى نصرته والقيام معه».

---

١ الطبري جـ٢ ص ١٥.

وإستجاب رزاح لدعوة أخيه وقدم مع قومه إلى مكة. ودار قتال عنيف بين الفريقين، ثم تداعوا إلى الصلح وإلى تحكيم رجل من العرب، فقضى هذا هذا الرجل بأن قصياً أولى بالكعبة وامر مكة من خزاعة «وتملك قصي على قومه وأهل مكة فملكوه فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصبح ملكاًأطاع له به قومه، فكانت إليه الحجاجة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله وقطع أرباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها»"[١]".

وهكذا بدأت مكة تأخذ شكلها وطابعها. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصي أمرها. ويعللون ذلك بأن خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون إلى الحل. فلما تم الأمر لقصي في مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا دورهم في مكة، وابتدأ هو فبنى دار الندوة وفيها «كانت قريش تقضي أمورها»"[٢]" وكانت قريش أكثر قدرة من خزاعة على الإشراف على الكعبة وحكم مكة وإضطرت خزاعة إلى أن تقنع بالمرتبة الثانوية في مكة.

لم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة، كما عرفتها قريش، وإنما كان في كل قبيلة نفر من «السادة» يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبي ولم تكن واجبات السيد أو حقوقه محددة. أما في مكة فقد أخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الإستقرار وإنتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شؤونها ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها

---

١ الطبري جـ٢ ص ١٨.

٢ الطبري جـ٢ ص ١٨.

على سدانة الكعبة حتى إنتهت إلى قريش على يد زعيمها قصي بن كلاب"[1].

إتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرماً أولوه إحترامهم وإعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل. وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما إرتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التي تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة ، وزاد مجد قريش أنها في مكة وأن الكعبة في مكة.

الأوثان عند الكعبة:

كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة ولولاها لما إستطاعوا المقام في ذلك الوادي الجدب، ولما كانت أوثان الكعبة هي التي تجذب القبائل العربية إلى مكة ولذا إهتم القرشيون بشؤونها ويسروا قدوم الحجاج إليها وانشأوا في مكة أماكن للسقاية ووفروا الطعام وجعلوا المنطقة المجاورة للكعبة حرماً لا يجوز فيه القتال وتولى وجوه قريش سقاية ورفادة الحجاج، ونصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة فكان لكل قبيلة أوثانها تقدم في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وزاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات"[2].

ونجح سدنة الكعبة في الإستفادة من هذه الأصنام وجعلوها تدر عليهم أرباحاً طائلة واقتبسوا في ذلك بعض النظم الوثنية التي كانت سائدة حينئذ في

---

١ انظر الحاشية: كتاب تاريخ التمدن جـ١ ص ٣٦.

٢ جورجي زيدان: تاريخ التمدن جـ ١ ص ٣٧.

مصر واليونان والهند وبابك، فكان كل من يأتي ليستقسم بالأزلام أو ليستشير الأوثان يدفع رسوماً محددة كماكان الوافدون يشترون حاجتهم من الطعام والماء والملابس إلى جانب نفقات إقامتهم، مما أدى إلى رواج تجاري في مكة. ووفر أهل مكة للحجاج والتجار الحماية والأمن والسلام.

قدست بعض القبائل أصناماً معينة عرفت بالأصنام الخاصة لإنفرادهم بعبادتها منها ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وكان يعبد هذه الأصنام الخمسة قوم نوح، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم: «قال نوح رب إنهم عصوني وإتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا ومكروا مكرًا كبارًا وقالوالا تذرن آلتكم ولا تذرن ودا و لا سواع اولا يغوث و يعوق و نسرا وقد أضلوا كثيرًا ولا تزد الظالمين غلا ضلالا»"[1].

وكان هناك أصنام عامة تشترك معظم القبائل في تقديسها وأشهرها: اللات والعزى ومناة. وقد تحدث القرآن الكريم عنها في هذه الآية الكريمة: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى»"[2].

أما اللات فهي صخرة مربعة بالطائف وعليها بناء ولها حي وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح وكان حجابها من بني مغيث من ثقيف. وكان الثقفيون يحاولون أن ينافسوا باللات كعبة قريش بمكة. أما العزى فهي شجرة بوادي مخلة إلى الشرق من مكة وكانت من أعظم الأصنام عند القرشيين فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة فقد كانت الكعبة هي المثل الأعلى وبلغ من تعظيم العرب وقريش أن كانوا

---

١ سورة نوح آية ٢١

٢ سورة النجم آية ١٩

يسمون أبناءهم عبدالعزى"[1] أما «مناة» فهي حجر أسود أقيم له معبد في قديد على الطريق بين مكة ويثرب وهي ألهة القضاء ولا سيما قضاء الموت.

أما أصنام قريش فكان «هبل»أعظمها وهو صنم على صورة إنسان وكان مصنوعاً من العقيق وقد كسرت ذراعه فأبدله القرشيون بذراع من ذهب. ومن أصنام قريش «اساف»و«نائلة» وقد وضع القرشيون كل واحدم منهما على ركن من أركان بيت الله الحرام فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم طوافه به.

قال المسعودي"[2] عن اساف ونائلة: «وبغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة وكان الرجل يدعى باساف والمرأة بنائلة فمسخهما الله عز وجل حجرين صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما إلى الله تعالى وقيل بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما».

كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنماً يقال له «مجاور الريح» كما نصبوا «مطعم الطير» على جبل المروة. فكانت العرب إذا حجت إلى الكعبة سألت قريشاً عن تلك الأصنام فيقولون لهم: نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى.

إنتشرت الأصنام في مكة وسائر مدن الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار مصورة وغير مصورة حتى قيل أنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً. فقد رأت قريش أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها إحترامهم وتقديسهم.

---

١ ابن الكلبي: الأصنام ص ١٣/ ١٥

٢ مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠.

ولم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نصباً في بيته يطوف به حين خروجه وساعة أوبته واعتبروا الأوثان وسطاء وشفعاء لهم عند ربهم.

فلسفة الوثنية العربية:

كان بعض العرب ضعيفي الإيمان بهذه الأوثان ويعلمون تماماً أنها لا تضر ولا تنفع ولكن لم يكن في إستطاعتهم أن يحدثوا إنقلاباً أو تغييراً فقد مضت أجيال والأوثان قائمة عند الكعبة وإشتهر أمرها بين العرب جميعاً وأصبحت عبادة تقليدية وراثية.

والبدوي العربي لا يكترث كثيراً للدوافع الروحية بل كان يقف منها موقفاً سلبياً، وكان في ممارسته للطقوس الدينية الوثنية إنما كان يحترم تقاليدها المتوارثة.

وكان سائر العرب يعتبرون هذه الأوثان وسطاء بينهم وبين الله أو شفعاء لهم لديه. فإن أذهان كثير من العرب في العصر الجاهلي ما كانت لتسيغ أن دعاءهم إلى الله عز وجل إذا وجه منهم إليه مباشرة يكون مقبولًا. وأنه لا بد لهم من وسطاء يتوسلون إلى الله ويقومون نحوهم ببعض العبادات. وأصبحت فكرة الشفاعة جزءاً رئيسياً من عقائدهم وعباداتهم وتطور الأمر بهم حتى آمنوا بقدرة الشفعاء على النفع والضرر.

ويرى المؤرخ العربي المعاصر محمد دروزة"[1]" أن العرب قبل الإسلام أو فريقاً منهم كانوا يعترفون بوجود الله كإله أعظم خالق السموات والأرض وما فيهما وأنه مدبر الكون وربه وأنه هو الذي يسيطر على قوى الطبيعة ويحيي ويميت ويرزق الناس ويرسل الأنبياء. وكان فريق منهم يعتقد أن ما هم عليه من

---

١ عصر النبي عليه السلام وبيئته ص ٣٩٦.

عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه وأنه راض عنهم وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء، أي أنهم يعترفون بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء وإشراكهم معه عز وجل في العبادة والدعاء والإتجاه.

وهذه الأفكار تمثل حلقة وسطى بين تفكر ديني قديم و تفكير ديني جديد. فقد كان العرب في أطوارهم الأولى وثنيين يعبدون المادة والقوى الطبيعية ويؤمنون بوجود أرواح خفية وشريرة ولم يكونوا قد تصوروا وجود الاله الأعظم بالصفات الواجبة له أو ما يقرب منها ثم أخذوا يسمعون ذكره وصفاته، وأخذت معانيه تدخل في أذهانهم شيئاً فشيئاً حتى دخلوا في طورهم الأخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن الكريم وهو التسليم بوجود إله أعظم له ملك السموات والأرض بيده الأكوان وتسخير القوى الطبيعية وهو ملجأ الناس ومصدر الخير. غير انهم لم يكونوا بعد قد وصلوا إلى اساغة فهم اله واحد غير مادي وغير مرئي فهما تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء ساغة تامة.

فكانوا مع إعترافهم بالله لم يروا غنى عن معبوداتهم الأولى التي كانوا بها وبرموزها أكثر إتصالًا ومشاهدة في العبادة والإتجاه وطلب العون والإستشفاع والإستعداء على قوى الشر والأذى.

ولم ينفردوا في العصر الجاهلي بعبادة الأوثان فقد كان كثير من الأمم المعاصرة لهم مغرقة في الوثنية. والوثنية هي الطور الذي تمر به كل أمة في بداوتها قبل أن تنتقل إلى التوحيد وعبادة اله واحد وإختلفت صور الوثنية بإختلاف البيئات والأزمنة. وعاش معظم العرب في جزيرتهم منعزلين عن أجزاء العالم الذين إرتقى أهلها من الوثنية إلى أديان التوحيد.

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة:

إختص الله بلاد اليمن بالأمطار الوفيرة وخصوبة الأرض مما هيأ الظروف لإنتاج زراعي كبير أدى إلى إنتشار الحضارة وقيام دول زاهرة حتى عرفت هذه البلاد باسم ل«بلاد العرب السعيدة»ونجحت بلاد اليمن في أن تستفيد من موقعها على طرق التجارة العالمية بين الإقليم الموسمي في الجنوب وإقليم البحر المتوسط في الشمال.

ونجح أهل مكة أيضاً في الإستفادة من وجود الكعبة في موطنهم فأصبحت مقصد ألاف من الحجاج والتجار. وقامت الأسواق العامرة حول مكة وخشيأهل اليمن على تجارتهم ونشاطهم الإقتصادي وشعروا بمنافسة أهل مكة ورأى تبابعة اليمن أن يعملوا على الخلاص من الكعبة إما بهدمها او الإستحواز عليها، ولكنهم كانوا يترددون كثيراً في الإقدام على هذه المغامرة لمنزلة الكعبة الكبرى بين سائر القبائل العربية وما سيجره ذلك على التبابعة من لوم وسخط، أو مقاومة حربية.

ونقل قوم من هذيل من بني لحيان إلى تبع باليمن أن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه وتنحر عنه وتحج إليه وأن قريشاً تتولى أموره وقد إرتفع شأنها وعظم ذكرها نتيجة ولايتها الكعبة وأخذوا يحرضونه على هدم الكعبة وبناء بيت آخر مماثل له في اليمن، فقالوا أنه أولى «أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لک فلو سرت إليه وخربته وبنيت عندك بيتاً ثم صرفت الحاج إليه كنت أحق به منهم».

وخرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ولكنه حاد عن عزمه وتأثر بقدسية البيت العتيق فكساه ونحر عنده، ويعلل المؤرخون هذا العدول من تبع بهبوب رياح وعواصف عنيفة أطاحت يخيام الجيش اليمني، ورأى تبع أن ذلك من مظاهر سخط الله عليه فخشي العواقب، بل رأى أن يعاقب بني هذيل الذين

أشاروا عليه بهدم الكعبة فقتلهم.

وكان تبع أول من كسا الكعبة كسوة كاملة ويروي العمري"[1]" أنه رأى في نومه أنه يكسوها فحقق رؤياه وكساها بالملاء والوصائل وهي ثياب مصنوعة في اليمن. كما جعل تبع للكعبة بابًا يغلق بضبة فارسية.

---

١ مالك الإبصار جـ ١ ص ١٠١.

٥ -أثر الكعبة فيإزدهار حضارة قريش

تطور قريش:

نشأ إسماعيل في قبيلة جرهم اليمنية بمكة بعد أن قدم أبوه إبراهيم به وظلت زعامة مكة وولاية الكعبة في جرهم حتى طغوا وتجبروا وأساءوا معاملة الحجاج وإستولوا على أموال الكعبة "[١]" وقدمت قبيلة خزاعة من اليمن فأجلت جرهم وإنتزعت منها السيادة. وإستمرت تتولى شؤون الكعبة أكثر من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيراً من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة الأوثان حتى برزت قبيلة قريش وإستطاعت أن تجمع شملها وإنتزعت السيادة من خزاعة وأصبح زعيم قريش قصي بن كلاب زعيماً لمكة أيضاً.

تنازع أبناء عبد الدار وعبد مناف ابنا قصي حول السيادة في مكة مما أدى إلى إنقسام قريش ثم إتفقوا على أن تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وتكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبني عبد الدار.

كان هاشم بن عبد مناف موسراً تولى الرفادة والسقاية وكان يأخذ منالقرشيين بعض مالهم كل سنة لتوفير الطعام والماء للحجاج. وهو أولمن سن رحلتي الشتاء والصيف. وتولى المطلب بعد اخيه هاشم السقاية والرفادة ثم عهد بهما إلى اخيه عبد المطلب.

وفي عهد عبد المطلب حدث الشقاق بين بني هاشم وبني امية، ذلك الشقاق الذي إستمر طوال العصر الأموي فقد دب النفور بين عبد المطلب بن

---

١ الأزرقي: أخبار مكة ص ٣٦.

هاشم وحرب بن امية. شعر حرب بالغيرة الشديدة من عبد المطلب واستحكم العداء بينهما ما هدد بإنقسام قريش. ورأوا أن يلجأ الطرفان المتنازعان إلى التحكيم جرياً على عادة العرب حينئذ. واحتكما إلى نفيل بن عبدالعزى فحكم لعبد المطلب بل توجه باللوم إلى حرب فقال له: يا أبا عمرو أتنافر رجلًا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً وأطول منك مزوداً"[1].

كانت حكومة مكة من النوع الذي يسميه علماء الإجتماع «الباتريارکا» أي تتبع نظام الأبوة أو سيادة الرجل. فكان لمكة أو لقريش زعيم بارز يخضع له الجميع.

لم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش، وغنما كان في كل قبيلة نفر من السادة يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبي وكان أعظم أولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم وواجباته كثيرة، ولكنها ليست محددة وإذا قامت الحرب أصبحت سيادته رياسة فعلية. هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة، أما في مكة فقد أخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الإستقرار وإنتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شؤونها. ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى إنتهت إلى قريش على يد سيدها قصي بن كلاب ثم حفيده عبدالمطلب"[2].

أصبحت لقريش في عهد عبد المطلب صيغة دولية. فقد كانت تربطها معاهدات سياسية وإقتصادية بالدول الكبرى في العالم القديم، وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة إعتراف الدول بقريش كوحدة سياسية لها

---

١ الطبري جـ ٢ ص ١٤.

٢ انظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن ج١ ص٣٦

كيانها وقوامها وإقتصادها.

فقد عقد هاشم مع الإمبراطورية الرومانية ومع أمير غسّان معاهدة حسن جوار ومودة وتعهد الإمبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال في أراضي الإمبراطورية في سلام. وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع نجاشي الحبشة. وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدولة الفارسية ومعاهدة تجارية مع الدول الحميرية العربية في بلاد اليمن. ورأى العرب أن هاشماً وعبد شمس و نوفل والمطلب قد «جبر الله هم قريشاً فسموا المجبربين»"[١].

مناصب قريش:

كانت المناصب في قبيلة قريش خمسة عشر منصباً وزعها القرشيون فيما بينهم بالعدل والقسطاس ليرضوا كل بطون قريش وحى لا يدب التنافس والتنافر بينها.

أما هذه المناصب فهي"١" السدانة أو الحجابة أي الإشراف على الكعبة "٢" السقاية أي توفير الماء للحجاج"٣"الرفادة أي توفير الطعام للحجاج"٤"الراية ويحملها أحدهم"٥" القيادة أي إمارة الركب في القتال أو التجارة"٦" الإشناف أي الإشراف على الديات"٧" القبة أي الإشراف على المهمات الحربية "٨" الأعنة أي تولي شؤون الخيل وقت الحرب"٩" الندوة وهي دار الشورى يجتمع فيها كبار رجالات قريش ممن تجاوز عمر هم الأربعين للتشاور في مهام الهامة"١١" الصفارة"١٢" الاسيار وهي الأزلام التي يستخبرونها"١٣" الحكومة أي الفصل بين الناس إذا إختلفوا"١٤" الأموال المحجرة وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم "١٥" العمارة أي منعالكلام بصوت

---

١ الطبري جـ٢ ص ١٣.

عال في الكعبة"[1]".

تولى هذه المناصب افذاذ من بطون قريش أي أن قريشاً كونت جمهورية صغيرة تولاها أكفأ أبنائها، وكانت قريش تشجع العرب على الحج إلى الكعبة ولذا عملت على إنصاف المظلوم ونشر العدل، كما وفرت الماء والطعام للحجاج.

كانت السقاية والرفادة من أبرز المناصب، أما السقاية فتعني سقاية زمزم فكان على عبد المطلب توفير الماء للحجاج ومزجه بعسل أو تمر. أما الرفادة فهي توفير الطعام للحجاج، وكانت قريش تتعاون في سبيل ذلك. وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة باعتباره من بنى مناف بينما تولى أبناء عمومته بنو عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة، كما قضى بذلك المحكمون حينما ثار النزاع بين الفريقين على النحو الذي ذكرناه.

وإن كان بنو عبد الدار قد تولوا أمر دار الندوة من الناحية الرسمية، إلا أن عبد المطلب كان زعيمها الروحي باعتباره زعيم قريش ومكة. وكانت هذه الدار هي دار حكومة مكة وتقع في جنوب غربي الكعبة بناها قصي سنة ٤٤٠ م. وكان وجوه قريش وفي مقدمتهم عبد المطلب يجتمعون في دار الندوة للتباحث فيما يهمهم من شؤون. وكان أخطر إجتماع في عهد عبد المطلب هو إجتماع القرشيين حين قدم ابرهة على رأس جيش الأحباشلغزو مكة وهدم الكعبة . وكانت هذه الدار مكان إنطلاق قوافل قريش للتجارة وعندها تنتهي. وإذا بلغ غلام لقريش عذر "أي ختن" فيها. وإذا بلغت جارية القريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها "أي قميصها" ثم يبدأ أهلها في حجابها.

---

١ العقد الفريد جـ١ ص ٣٨ وتاريخ التمدن جـ١ ص ٢٩.

وكان الزواج مسألة قبلية فكان القرشيون يتشاورون في تزويج بناتهم وتقرير مدى كفاءة الزواج وكانت هذه الدار هي التي إجتمع الوثنيون فيها لتدبير مؤامرة قتل الرسول ليلة هجرته إلى يثرب.

زعماء قريش للقبائل العربية:

كانت السياسة الحكيمة التي إتبعها زعماء قريش عاملًا هاماً على إرتفاع شأن قريش في مكة ثم في بلاد الحجاز جميعها ثم في الجزيرة العربية، بل سائر أرجاء العالم القديم. فقد كانت المعاهدات التي عقدها بنو هاشم مع الدول المعاصرة لهم بمثابة إعتراف بقريش كدولة وهي وإن كانت تختلف عن غيرها من الدول إلا أنها الصورة التي تناسب ظروف مكة وبلاد الحجاز.

وأدى إخفاق غزو الأحباش لمكة في عهد عبد المطلب إلى إرتفاع ذكرقريش في أرجاء الجزيرة العربية فقد أدرك العرب أن العناية الإلهية ترعى قريشاً وتصد عنها أعداءها.

إعتاد المؤرخون أن ينظروا إلى المجتمع العربي في الجاهلية نظرة تقوم علىوحدة القبائل وتفردها فذهبوا إلى أن القبائل وهي مجموعة عصبيات متناحرة كأن كل قبيلة أمة مستقلة. والحقيقة أن المجتمع العربي الجاهلي لم يكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت ولم تعش القبائل في هذا التحاجز والتباعد بل كانت هناك حركة متحركة تقارب بين القبائل وتصل بينها بالنسب وتصل بينها بالحلف، وكانت هناك حركة نشيطة بين القبائل في داخل الجزيرة العربية"[1]".

أسست قريش حكومة جمهورية من نوع الحكومات التي كانت في بلاد العرب وإتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة للكعبة أولوه إحترامهم وإعتبروه

---

١ شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية ص ١٨.

مقدساً وحرموا فيه القتال. وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما أصبحت قريش محترمة في نظر القبائل العربية.

عدد الجاحظ ما تميزت به قريش على سائر القبائل العربية فتحدث عن كرمها، وسخائها وتفوقها العقلي ونضوج أفكارها وحسن تدبيرها وسماحة أخلاقها ووصف الجاحظ كيف وصلت قريش قديمها بحديثها.

ولما كانت قريش قبيلة تجارية فقد رأت من حسن السياسة أن توفر السلام في مكة وتحفظ التوازن بين القبائل حتى تضمن الأمن لقوافلها وساعدها على تنفيذ سياستها موقع مكة الجغرافي فقد كانت مكة تقع في منتصف الطريق وكانت القوافل تستقي من زمزم وتأخذ حاجتها من الماء ولأن قريشاً أهل الكعبة التي يدين العرب بعظمتها ويكنون لها الإحترام.

قال الزمخشري في الكشاف: «كانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . قال تعالى "أولم نكن لهم حرماً آمناً يحي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون".

إعتبرت قريش الأرض المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً وتجعله حرماً لا يحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته فاطمأنوا عندئذ إلى أنهم في أمن وسلام من إعتداء القبائل عليهم ونشوب المعارك في جوارهم وقد زاد في مجد قريش أنها في مكة وأن الكعبة في مكة"[١]".

---

١ الحضارة الأموية ص ٧٩.

أاثر الكعبة في إزدهار تجارة قريش:

استن هاشم بن عبد مناف رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشاموبرزت في عهد ابنه عبد المطلب أهمية هذه الرحلات وأثرها في حياة قريش ومكة، بل في حياة الجزيرة العربية كلها. وفي عهد عبد المطلب وصلت تجارة قريش إلى ذروتها فقد بدأ القرشيون يجنون ثمار المعاهدات التجارية وإتفاقات حسن الجوار التي عقدها هاشم وإخوته مع دول الفرس والروم والأحباش والغساسنة والحميريين باليمن. وأصبحت تجارة قريش تعرف طريقها إلى كل مكان في العالم القديم وعمل القرشيون كتجار أو كوسطاء تجاريين أو كناقلين للتجارة. وإزداد ثراء قريش في عصر عبدالمطلب زيادة كبيرة، وأدى هذا الثراء إلى إنتشار الحضارة في قريش وإلى إنتشار الرخاء في مكة.

أشار القرآن الكريم إلى رحلات قريش في الآية الكريمة: "لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف" والإيلاف شيء كان يحمله هاشم لرؤساء القبائل من الربح. وجعل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم ابلا مع ابله ليكفيهم مؤنة الاسفار ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء فكان المقيم رابحاً والمسافر محظوظاً.

وهاشم هو الذي تنسب إليه "غزوة هاشم" في بلاد الشام. فقد كان يفضل دائماً الرحيل إليها للتجارة، وحذا أبناؤه حذوه بعده. فكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس، يؤلفون الجوار بعضهم بعضاً ويجيرون قريشاً بميرهم وكانوا يسمون المجيرين.

وكانت تجارة قريش قبل هؤلاء العظماء لا تعدو مكة إنما يقدم التجار الأجانب إلى مكة بالسلع المختلفة فيشتري القرشيون منهم سلعهم ويتبايعون فيما بينهم أو يبيعونها لمن حولهم من العرب.

أدى نشاط هؤلاء الزعماء الأربعة من قريش إلى نمو ثروة قبيلتهم وإتساع تجارتها فسماهم قومهم "المجيرين" وأطلق عليهم سائر العرب اسم "أقداح النضار" لطيب احسابهم وكرم فعالهم. فقد فقح هؤلاء القرشيون أمام قومهم أبواب التجارة مع الدولة الرومانية وبلاد الحبشة ومصر والدولة الفارسية وكانت قريش قد زهدت منذ زمن طويل فيما كانت تعتمد عليه القبائل الأخرى من غارات وغصوب وأصبحت تعتمد في مواردها على التجارة وعملت التجارة على إختلاطهم بالشعوب المجاورة"[١].

كانت الجزيرة العربية منذ أقدم العصور طريقاً عظيماً للتجارة فطوراً ينقل العرب غلات جزيرتهم العربية، وخاصة بخور اليمن إلى ممالك أخرى كالشام ومصر حيث تحتاج المعابد إلى هذا البخور. وطوراً ينقل العرب غلات بعض الممالك إلى البعض الآخر. وذلك لأن البحر لم يكن طريقاً آمناً، فالتجأ إلى الطرق البرية. وكان في الجزيرة العربية طريقان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي أحدهما من حضرموت إلى البحرين والآخر يحاذي البحر الأحمر وتقع مكة في منتصف هذا الطريق.

وأستفاد العرب جميعاً من هذه التجارة. فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه، ومنهم من كان يستخدم في التجارة سائقاً أو حارساً أو دليلًا. وبرغم حب العربي للغزو والغارات إلا أن حبه للوفاء وشعوره بالشرف وتقديره للوعد الذي يصدر منه جعله ينجح في الإشتغال بالتجارة.

كان اليمنيون يسيطرون على التجارة في بداية الأمر ولكن بعد إنهيار سد مأرب وإنحطاط الحضارة اليمنية حل محلهم منذ القرن السادس الميلادي على

---

١ كرد علي: الإسلام والحضارة الغربية جـ ١ ص١٢٢.

ناصية التجارة عرب الحجاز وخاصة القرشيون.

ففي عصر عبد المطلب نجح الأحباش في القضاء على الدولة الحميرية في بلاد اليمن وبدأت فترة الإستعمار الحبشي لبلاد اليمن. وإستفاد القرشيون من إنهيار هذه الدولة اليمنية فقد حلوا مكانهم في ميدان التجارة.

كان القرشيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها لحسابهم في أسواق فارس، لأن التجارة مع الفرس كانت في يد عرب إمارة الحيرة. وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم،ووصل المكيون قبيل الإسلام في عهد عبدالمطلب عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه، إلى درجة عظيمة من التجارة وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في إستيراد أدوات الترف وخاصة الحرير"[١]".

ويذكر المؤرخ "أوليري" في كتابه "الجزيرة العربية قبل محمد" أنه كان للرومان بيوت تجارية في مكة وكانت تقوم بعملين العمل التجاري العادي، والتجسس على أحوال العرب. كما كان في مكة أحباش يتولون شئون تجارة بلدهم.

كان الجمل سفينة الصحراء، وكانت القافلة أسطولها ويمكن أن نسمي البدو الذين يقودون قوافل قريش ملاحي الصحراء، فقد جابوا الصحراء بإبلهم وقطعانهم وقوافلهم وتبين لنا الكتابات القديمة أهمية التجارة بين القطار الواقعة بين الحجاز وجنوب بلاد العرب والهند والحبشة واليمن وبين بلاد الشام.

بلغت ثروة قريش ذروتها وقد مارس القرشيون جميع أعمال التجارة فقد مارسوا ما يشبه أعمال المصارف المالية. وكانوا يفضلون أن يستثمروا أموالهم في تجارة الإبل والأغنام والأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأصباغ

---

١ أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٣

والجواهر والأصواف والحرائر والحلى والأثواب المنسوجة في مدينة "تانيس" والبصر ودمشق والمصوغات المجلوبة من منف وهرموبوليس والعاج وريش النعام من الحبشة والسودان والأخشاب من صور وصيدا ولبنان والقراطيس من الشام و نابوليس"[١].

كانت بلاد العرب وعرة إلا على القرشيين لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف فيها، وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير، ولم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما سبيل للسير في هذه الفيافي والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار. فاحتكر القرشيون تجارة بلاد العرب السعيدة أي اليمن والشام وغيرهما. وكان من أثر إحتكارهم تلك التجارة وإنتشارها في مكة أن حاز أهلها ثروات ضخمة.

ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف في قريش للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم. اضف إلى ذلك إزدياد عدد هم على الايام لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التي أنهكت قوى العرب في جاهليتهم. كما ساعدتهم ثروتهم على قرى الضيف فلهجت بمجامدهم ألسنة الشعراء والوافدين على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب"[٢].

بعد نجاة مكة من الغزو الحبشي في عهد عبد المطلب عظمت مكانة مكة الدينية، كما عظمت مكانة قريش التجارية. وأصبح القرشيون لا يفكرون شيء غير الإحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ومحاربة كل من يحاول الإنتقاص منها أو الإعتداء عليها، وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما

---

١ لطفي جمعة: ثروة الإسلام ص ١٣٩

٢ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ١ ص ٦٤

كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف في هذه الجهة الصحراوية الجرداء"[١]".

إزدهرت التجارة في مكة وصاحب هذه التجارة أعظم مظاهر العمرة والحج بهجة، وهو إنعقاد الأسواق السنوية العامرة في مكة في موسم الحج وكانت الحياة العربية تصل فيها إلى أوج نشاطها وعظمتها.

كان الإشتغال بالتجارة يحتاج إلى الإلمام بالأحوال السياسية والتجارية في العالم القديم، ولذا إهتم القرشيون بدراسة العلاقات القائمة وقتذاك بين الفرس والروم والأحباش واليمنيين والمشاكل التي تشوب هذه العلاقات.

وأصبحت تجارة قريش مدرسة أو جامعة عملت على تكوين أفراد ذوي خبرة وتجارب وعلم يصعب على المدارس أو الجامعات العادية تخريجهم فيها. وكانت التجارة تقتضي الإلمام بجوانب الحساب التجاري وكل ما يتربط بالتجارة من الدراية بالمكاييل والموازين والمقاييس العالية وما يتعلق بالنقد الأجنبي، والعملات الدولية والعقود والصكوك، وغير ذلك من الأساليب التجارية ومستلزماتها الضرورية.

كما أصبحت جدة التي كانت تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلًا ميناء قريشوإمتلك القرشيون عدداً كبيراً من السفن كانوا يعبرون بها البحر الأحمر إلىالحبشة برغم خطورة الملاحة في هذا البحر وقتذاك حيث كانت السفن لا تزال بدائية الصناعة.

وأصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين إقليم البحر التوسط المعروف بغلاته المتميزة المتوافرة في الشام وفلسطين وآسيا الصغرى وبين ذلك الإقليم

---

١ هيكل: حياة محمد ص ٦٥

الموسمي في جنوب الجزيرة العربية التي تشتهر بغلات كان العالم القديم يحتاج إليها مثل التوابل والبخور.

إستفاد القرشيون فوق تجارتهم المادية إقتباسهم ألواناً عديدة من الحضارتين الرومانية والفارسية. فقد كان التجار القرشيون يطلعون على معالم هاتين الحضارتين حينما يقصدون مدن الدولتين الرومانية والفارسية ويختلطون بأهلها. وقد نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من المصطلحات والكلمات الرومانية والفارسية. وأدى إطلاع القرشيين على النظم السياسية والإجتماعية والإقتصادية في دولتي الفرس والروم إلى نمو ثقافتهم وزيادة معلوماتهم ورقي أفكارهم. فكان معظم القرشيين يلمون بالقراءة والكتابة والحساب، مما أتاح الفرصة لظهور شخصيات مستنيرة استطاعت أن تتولىأمور الدولة العربية الإسلامية التي بزغت بظهور الإسلام.

حضارة قريش:

بلغت قريش في عهد عبد المطلب شأواً بعيداً في الحضارة لم تبلغه في أي عهدمن عهودها قبل الإسلام. وإن كان قصي بن كلاب قد وضع بذور هذه الحضارة فقد جنى حفيده عبد المطلب الثمار. ولذا لا عجب أن إرتفع شأنهوعظم أمره.

أصبحت الجزيرة العربية بسبب وجود مكة المدينة المقدسة مركز الحياة التجارية، ولذا أثرت وأثرى أهلها وإدخروا الاموال والمعادن النفيسة وعرفوا ألواناً من الترف وتقلبوا في ألوان النعمة والرفاهية.

وقد روى الوافدي أن العرب إستخرجوا الذهب من مناجم سليم وجلبوه إلى مكة حيث صنعوا منه أنواعاً عديدة من الحلى وإدخروه سبائك ذهبية. وظهر

من بين أهل مكة رجال حازوا ثروات كبيرة نتيجة إشتغالهم بالتجارة وكانت المنازل في مكة تقدر بالذهب وتراوح ثمن الدار بين مائتين وخمسمائة دينار. وإمتلك المكيون الجياد الكريمة وتفاخروا بعددها ونسبها. وإشتهر المكيون بالكرم والشهامة والمروءة وإكرام الضيوف، وبدا هذا الكرم واضحاً زمن الحج فقد حرصوا على توفير وسائل الراحة للحجاج.

لم تقم في عهد عبد المطلب حروب قبلية مثل التي كانت تحدث بين حين وحين في عصور الجاهلية، تلك الحروب التي كانت تثير النفور بين القبائل وتسفك الدماء وتشل نشاط العرب الإقتصادي وتتهدد طرق القوافل. وحرص عبد المطلب على حل جميع المشاكل بالطرق السلمية. فقد كانت تلك الحروب القبلية تهدد قوافل قريش وخاصة قوافل رحلتي الشتاء والصيف، وهي تمثل أبرز موارد قريش. وكان عبد المطلب يلجأ إلى التحكيم كلما بزغ نزاع بين امية بن عبد شمس و حين كشف عبدالمطلب عن بئر زمزم وجد كثيرًا من الحلى والنفائس الذهبية ونازعته قريش فيما وجد وقام نزاع عنيف وإختار عبد المطلب طريق التحكيم لأنه طريق السلام. وحين قدم ابرهة على رأس جيش حبشي لغزو مكة وهدم الكعبة لجأ عبد المطلب إلى طريق المفاوضات فقد تكون أجدى من السيف والحرب. ولذا كان عبد المطلب بحق رجل سلاميعمل على أن ترفرف راية الأمن والطمأنينة على مكة وبلاد العرب.

مالت قريش في حياتها السياسية إلى الديمقراطية وكانت دار الندوة تشبه البرلمانات المعاصرة فلم يكن أحد من زعماء قريش ليستبد برأيه أو ينفد أمره إلا بعد أن يعرض مهام الأمور على وجوه قريش في دار الندوة، بل كان هؤلاء الوجوه يتدخلون في زواج، فتيات قريش، فقد كان الزواج مسألة تهم القبيلة كلها وليست مسألة شخصية أو فردية، فقد كانت العرب تفخر بالأنساب ونقاء

الدماء. وإذا قارنا ديموقراطية قريش بأرستقراطية الأمم العظمى المعاصرة للجاهلية وخاصة الفرس والرومان لأدركنا سبق العرب في هذا المجال.

كانت مكة مركز الحياة التجارية والأدبية بلاد الحجاز فكان يقدم إليها العرب من كل مكان زمن الحج والمواسم العربية فيتناقلون الآداب الإجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بشرفأصلهم وكرم مجدهم فتغرس كل هذه المظاهر الإجتماعية والأدبية في نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة وتدفع بهمإلى جليل الأعمال وأسمى الغايات"[1].

لم يكن معظم العرب يهتمون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة، فلم يكن التعليم منتشراً في الجزيرة العربية في ذلك الحين، كما كان العرب قد انشغلوا بالبحث عن موارد الحياة والسعي وراء الرزق عن التعليم، فقد كانت طبيعة بلاد العرب قاسية لا تجود بالخير العميم. ولكن الله عزوجل قد عوضهم عن ذلك بذاكرة قوية، وسعة أفق، وصبر وقوة احتمال، وخيال فياض..

ولكن قبيلة قريش كانت أكثر هذه القبائل اهتماماً بالتعليم، نتيجة الحضارة التي وصلت إليها، ونمو ثرائها، وإحتكاكها بالدول الكبرى المتحضرة إلى جانب حاجة القرشيين إلى التعليم ليقوموا بواجبهم التجاري. وقد كان عبد المطلب، مثله في ذلك مثل معظم القرشيين، يجيد القراءة والكتابة والحساب.

وصف الألوسي في كتابه "بلوغ الأرب" العرب فقال عنهم: «والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولًا وأحلاماً وأطلقهم وأوفرهم أفهاماً، استتبع ذلك لهم كل فضيلة وأورثهم كل منقبة جليلة، وتحدث ابن رشيق في كتابه "العمدة"

---

١ تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٦٦.

عن العرب فقال عنهم: «العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم».

مهرت قريش في عدة علوم، فإلى جانب العلوم التجارية التي تعلموها بالتجربة والخيرة والمران حتى حذقوها، مهروا في علم الأنواء فعلموا مواعيد نزول الأمطار وهيوب العواصف والرياح، كما أجادوا علم الأثر، وتتبعوا آثار الأقدام في الصحراء، وكانت تدلهم أحياناً على مسالك الصحراء ودروبها. كا برعوا في علم الأنساب، وقد كانت قريش تدرك متزلتها بين القبائل العربية ، ولذا حفظوا أنسابهم واهتموا بتسلسلها وبرز من القرشيين نسابون ذاع صيتهم بين العرب.

وعدد الجاحظ صفات العرب وعدد العلوم التي اشتغلوا بها فقال: أذهان حداد ونفوس مفكرة، قحين جلواحدهم، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق، وتصاريف الكلام، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب والإهتداء بالنجوم والإستدلال بالآثار وتعرف الأنواء، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس وأحكام المناقب والمثالب، بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية، وبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر، وهمهم أرفع، وهم من جميع الأمم أفخر، ولأيامهم أذكر.

ولم يحل عدم إنتشار التعليم في بلاد العرب دون قيام نهضة أدبية في هذا العصر الذي ندرسه. وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذي يكون صورة صادقة الخلق القومي، والذي يختلف تماماً عن الشعر في الشعوب السامية الشمالية في مادته وتركيه. وتناول الشعر العرفي القديم حياة العرب يجميع جوانبها، وطالما تغنى الشعر العربي بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها بجم الألوان من الأخيلة الشعرية، كما لم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة. ولم تكن القافية خاصة بالشعر، فقد تقفى العبارات التي

لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر، والي ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة، مثل تنبؤات بعض المتنبئين وحكم الحكماء"[1]".

ارتفع شأن قريش في أرجاء الجزيرة العربية والدول المعاصرة، ونظر الجميع إليها بعين الحرمة والإجلال، لشرف المحتد، وسمو الفكر، ولأنهم حماة الكعبة، وسدنتها وعظم أمرها بعد إخفاق أبرهة الحبشي في غزو مكة وهدم الكعبة، فارتفع شأن عبد المطلب وقبيلة قريش.

وقد ظهرت قريش بمظهر الحذق والفطنة في التجارة، والميل إلى السلم من أجل اشتغالهم بالتجارة، فخلصوا بالتدريج من شوائب البداوة، وكفوا عن الرحيل لرعي الإبل وتربية الأنعام، واستقروا وثبتوا ونظموا أسفارهم، في قوافل رتبية على ظهور الإبل لجلب الخير إلى وطنهم.

أصبحت قريش رمزاً للسلام في الجزيرة العربية، والداعية إليه، فقد أدركوا أهمية تحقيق السلام لهم، وما يعود به عليهم من فوائد إقتصادية ومكاسب مادية.

ونعمت قريش بالهدوء العائلي، فقد فطنوا إلى متعة السفر في سبيل الكسب ولذة الحنين إلى الوطن وهم بعداء، وقرحة العودة إلى الدار ولقاء الأسرة والأصحاب والتردد على مجالس السمر بعد طول الإغتراب. ورغبت قريش عن الغزو وإثارة الأحقاد بينهم وبين جيرانهم، بل اتخذوا من هؤلاء الجيران أحلافاً وأعواناً وأضيافاً يرحلون إلى بلادهم في أعمالهم فيصلون إلى الشام وإلى اليمن جنوباً، وإلى نجد وتهامة ونجران.

نسب المؤرخ الألماني «فلهوزن» ارتقاء مكة والحجاز إلى تفوق سكان

---

١ تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٦٨.

مكة من قريش، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليين فالمقطوع بأن التجارة التي امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت إليهم مؤثرات ومطامع جديدة، ولذا كان من بين الرجال الذين عرفوا القراءة والكتابة قبل الإسلام عدد كبير نسبياً من أهل مكة.

ويرى "فلهاوزن" أن أهل مكة، برغم افتقارهم إلى نظام حكومي تحلوا بروح التعاون، ونظر ثاقب في الأمور التي تهم الصالح العام، وذلك بصورة لا نجد لها مثيلًا في أي مكان آخر من بلاد العرب. فبالرغم من أن كل أسرة كانت في جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، فإنها وضعت مصالح مكة أولًا وقبل كل شيء، أي أنه قام هناك سلطان يدل على وجود نظام صالح لإدارة مكية، وهذا النظام كان حدثاً هاماً في بلاد العرب برغم بساطته وضيق حدوده.

٦ -أثر الكعبة في تطور مكة

نشأة مكة وتطورها:

قامت مكة في عصر إسماعيل، الجد الأكبر لعبد المطلب، وبدأت مكة تدخل من أبواب التاريخ وتتجلى عظمتها في عهد قصي بن كلاب، وبلغت ذروة مجدها في العصر الجاهلي في عهد عبد المطلب، ثم تشهد مكة مشرق نور الهداية، فيولد فيها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، محمد الهاشمي القرشي.

كان وادي مكة، قبل قيامها، موئلًا لراحة القوافل. والراجح أن إسماعيل ابن إبراهيم كان أول من اتخذها مقاماً وسكناً. وبعد تقجر بشر زمزم نزلت بهذا المكان قبيلة جرهم فقد أصبحت الحياة ممكنة. وشب إسماعيل في هذه القبيلة وتعلم منهم اللغة العربية. ثم كان قيام إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة بأمر من الله عز وجل، فكتب المولى بذلك الخلود والمجد لمكة قد أصبحت موطن الكعبة ومقصد الحجاج.

تولى عبد المطلب أهم مناصب القيادة والزعامة في مكة. ولم تكن هذه المهام شخصية أو عائلية مجردة من ملابسات أخرى، كما أن البيوتات التي كان يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها ارتجالًا وبقوتها الخاصة بها، بل أنها كانت مهام ذات صبغة أو سلطة رسمية اضطلعت بها هذه البيوتات.

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدن، وكانوا ملمين بوسائل الحكم في الدول المعاصرة، واقتبسوا منها ما يلائمهم، وتولى زعماء قريش السلطات الدينية والمدنية معاً. وتوارثوا هذه المناصب، تبعاً لتقاليدهم الخاصة.

بدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة عامرة في عهد قصي بن كلاب، وتحدث ابن

هشام"[1]" عن مكة في عهد قصي فقال:

«فولي قصي البيتو أمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على أهل قومه وأهل مكة فملكوه إلا أنه أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره. فحاز، شرف مكة كله، وقطع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها.

كانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة. وكانت الجامعة المكية ايلافاً من الأسباط المجاورة، كل سبط يقيم في أحد الأحياء، ولم يكن في مكة سلطة عامة، فكان الأسباط وشيوخها مصدر السلطات، يحكمون بما يحقق المصالح العامة. وكان في مكة جاليات أجنبية، يهودية ونصرانية وسورية ومصرية وحبشية ورومية وفارسية، وكان كثير منهم يشتغل بالصناعات، وقدم كثير منهم بعد إضطهادهم في بلادهم الأصلية، وتعدد هذه الأجناس يبين صلات مكة بالبلاد المختلفة وامتلأت مكة بالمنازل الفخمة، وكانت مكة تفخر على سائر مدن الحجاز بوجود الكعبة بها.

لم تكن مكة في عهد عبد المطلب تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية في خيراتها أو بذخها، فقد كانت تقع في أجدب بقاع بلاد العرب. ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة في حماها. ولم يكن منظر مكة في عهد عبد المطلب يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية، ولكنها تفوقها جميعها بأنها تحوي من البيوت الفخمة ما هو أكثر عدداً وأجمل شكلًا.

من أعلى جبل أبي قبيس الذي يشرف على مكة من الشرق، يبدو

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٢٤

شكلهاالمستطيل من الشمال إلى الجنوب في بطن واد ضيق. وعندما ينظر إليها المرء، لأول وهلة، فإنه لا يكاد يميزها من الأديم الذي تقوم عليه أن الجبال الجرداء الصخرية التي نحيط بها لا يفصلها عنها بأية واحة، فليس بينها وبين مكة أي بقعة خضراء، وأن سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التي تحدرت على سفوح تلك الجبال.

أما بعد أن تراض العين شيئاً فشيئاً، فإنها تميز البيوت والدور، وتكشف المداخل الخفية، ويتنبه الإنسان بغتة لمنظر مفاجيء لمدينة كبيرة، لم يكن يظن وجودها في هذا الكان فإن العين تراها تكبر دون حد حتى ليكاد الإنسان يعزو إتساعها المفاجيء إلى سحر ساحر، وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت إلى منازل، وتبدو الآكام أشبه بضواح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية"[١]".

كان في مكة في عصر عبد المطلب جاليات أجنبية، سورية ومصرية، وحبشية، ورومية وعراقية. وكان كثير منهم يمارس ألواناً من الاعمال الصناعية، وكانوا نواة الطبقات من الصناع المحليين. ولم يكن التكسب والعمل في مجالات النشاط الإقتصادي خاصاً بالرجل بل شاركت المرأة فيه. وتنوع جنسيات الأجانب، أحراراً وأرقاء، يدل على صلات مكة بلاد الشام، وفارس ومصر والحبشة والعراق، وكانت مكة موئلا لكل من يقع عليه إضطهاد ديني أو عنصري في هذه البلاد. ولقي المهاجرون من زعماء مكة ترحيباً وتشجيعاً"[٢]".

وفي عصر عبدالمطلب، كان الأحابيش يكونون جانباً من مجتمع مكة. ويستعمل لفظ "الأحابيش" في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قريش تستأجرها قبيل الإسلام للدفاع عن مكة أو قوافلها التجارية التي كانت تتردد

---

١ اتين دينية: محمد ص ٥٦

٢ دروزه: عصر النبي ص ١٠٢

بين الشام واليمن، ويؤخذ من صريح النصوص العربية، لغوية كانت أو تاريخية، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة

وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة. وذكر المؤرخ "فلهاوزن" أن الأحايش أحلاف قريش السياسيون.

هذا بينما يرى المستشرق "لامانس" أن الأحابيش كانوا كلهم أو جلهم على أقل تقدير، زنوجاً من الحبشة، وقام المرحوم الأستاذ العبادي ببحث حول هؤلاء الأحابيش، ثم أكد ثلاثة أمور: أولا: أن الأحايش كانوا عرباً. وثانياً: أن القول بعروبتهم هو المتفق مع تاريخهم. ثالثاً: أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبها لم يكونوا من الأحابيش في شيء، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد تخدم أشراف مكة في السلم والحرب، وبعض هذه الطبقة اشتراه الأشراف بالمال وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشي التي حاولت غزو مكة وهدم الكعبة في عهد عبد المطلب"[١].

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدين، وكانوا واقفين على ما في هذا العالم من أساليب للحكم والإدارة، وقد إقتبس أهل مكة من ألوان الحضارة والترف وأشكال الحكومة ما يناسبهم، وصبغوه بصبغة خاصة، تتلاءم مع بيئة مكة العربية. وقامت جمهورية مكة كدولة من دول المدن، وهي تختلف عن الدول المعاصرة لها، كا تختلف تماماً في شكلها عن أشكال الحكم المختلفة التي عرفتها القبائل العربية اليدوية، وكانت التجارة مصدراً لثراء مكة، كما كانت الكعبة منبعاً للنفوذ السياسي والديني.

---

١ العبادي: صور من التاريخ الإسلامي ص ١٤.

الكعبة ومكة في عهد عبد المطلب:

ورث عبد المطلب الزعامة عن آبائه. ولكنه أثبت جدارته، وقام بواجبات الزعامة خير قيام، وتحدث المؤرخون عن جوانب العظمة في شخصية عبدالمطلب. كما إعترف معاصروه له بالزعامة والتفوق ونعمت مكة في عهده بعصر من أزهى عصورها في شتى المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

في ميدان السياسة الداخلية، نجح عبد المطلب في أن يحفظ السلام في مكة، وعاشت القبائل جنباً إلى جنب في هدوء وسلام. وكان الثراء الذي تدفق على قريش دافعاً لها على تجنب الحروب القبلية الصغيرة التي كانت مكة تشهدها من قبل من أجل موارد الحياة. وإستكانت سائر القبائل السيادة قريش وأعجبتهم السياسة الرشيدة التي ساسهم عبد المطلب بها.

وفي ميدان السياسة الخارجية. عمل عبد المطلب على توثيق صلاته الخارجية بالدولتين الفارسية والرومانية وإمارتي الحيرة والغسانية، وبلاد اليمن والحبشة. وظلت اليمن والحبشة، وظلت علاقة عبد المطلب بالدولة الحبشية طيبة في أول الأمر، حتى إن عبد المطلب أراد أن يكون النجاشي حكماً بينه وبين عمه نوفل حتى كان بناء أبرهة كنيسة صنعاء ورغبته في تحويل الحجاج العرب إليها.

وفي مجال النشاط الإقتصادي، أصبحت مكة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن مركز الحياة الإقتصادية في بلاد العرب وملتقى قوافل دول العالم القديم. وإزدحمت مكة بالتجار من مختلف الأجناس والأديان، وشهدت مكة ألواناً مختلفة من الحضارات واللغات والثقافات.

إرتفع شأن عبد المطلب بعد اعادته حفر زمزم، فقد كان أهل مكة يعانون

طول تاريخهم قلة موارد المياه، فكانوا يجلبون المياه على ظهور الإبل من خارج مكة فيتجشمون النفقات والمشقات. حتى إذا كشف عبد المطلب عن بئر زمزم، تدفق الماء وعاد الخير العميم، واعتبر أهل مكة الكشف عن زمزم حدثاً كبيراً.

أبدى عبد المطلب خلال غزو الجيش الحبشي لمكة ثباتاً وحزماً وهدوءاً، ونجح في تنظيم خروج أهل مكة إلى الجبال والشعاب والوديان، ووحد عبد المطلب صفوفهم فتناسوا أمام العدو الأجنبي المشترك خلافاتهم القديمة ووقفوا وراء عبد المطلب وأصبح العرب يؤرخون لأحداثهم بعام الفيل إحياء لذكرى إنتصارهم وسلامة الكعبة ومكة من هذا الغزو الحبشي.

تولى عبد المطلب الطعام الحجاج وسقايتهم، وإشترك في إجتماعات دار الندوة، وكان لمكة في عهد عبد المطلب ميزانية ثابتة منظمة، وكان عبد المطلب يجمع بعض المال من أهل مكة لتوفير الطعام والماء للحجاج وشراء كسوة حريرية للكعبة.

رفرفت راية العدالة في سماء مكة في عصر عبد المطلب فقد كان زعيماً رشيداً ورئيساً عادلًا سخر جهوده لخدمة أهل مكة وحجاج الكعبة فيسر أمور الحج وبعث بقوافل مكة إلى كل مكان في العالم القديم. ودافع عن مكة ضد هجوم الأحباش ونجح في توحيد صفوف المكيين ضد العدو المشترك، ولاشك أن هذه العدالة وهذا الإستقرار الداخلي وهذه النهضة الإقتصادية قد أدت جميعاً إلى رخاء وافر وحضارة زاهرة بدت معالمها في صور مختلفة.

ينظر المؤرخون عادة إلى العصر الجاهلي على أنه عصر ظلمات وفوضى، فيذهبون إلى أن العربي في الجاهلية لم يعرف حضارة ولم يتذوق ثقافة وجرده المؤرخون من الفنون والآداب. ولكن هؤلاء المؤرخينتجاهلوا تلك الدول التي

قامت على أطراف الجزيرة العربية كدولة البابليين والأشوريين والأراميين والكنعانيين والمعينيين والسبئيين. وقد قدمت هذه الدول للإنسانية ألواناً من الحضارة.

كانت مكة موطن الكعبة ودار سلام يأمن فيها كل إنسان على نفسه وحريته ومتاعه. وعمل أهل مكة على جذب الناس من كل مكان إلى مكة للحج أو للتجارة أو للسياحة تحقيقاً لفائدة مادية تعود على أهل مكة نتيجة كثرة الوافدين. وكان المكيون يوفرون للقادمين الماء والطعام ويقيمون لهم الولائم ويذبحون الذبائح ويؤمنونهم على أرواحهم وأموالهم.

تميز نظام مكة التجاري بأنه نظام محكم متقن، فإن أهل مكة لا يكونوا ليؤمنوا بإكتناز الأموال وإحتباسها. فإن المكي إذا ما زاد دخله من التجارة سعى إلى إستغلال ماله في مشاريع أخرى. وكان الشريك الموصي غير العامل بأخذ نصف الأرباح مما جعل كل فرد يساهم بأي مبلغ صغير في التجارة، وكان تنظيم القافلة ورحيل القوافل الأجنبية ووصولها إلى الأمور التي تهم أهل مكة جميعاً، وكانت قوافل مكة ضخمة في حجمها حيث بلغ عدد الإبل أحياناًألفين وخمسمائة بعير وعدد الرجال ثلاثمائة رجل"[١]".

تطورت مدينة مكة وصارت مدينة كبرى وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن وكان ذلك في مطلع عهد عبد المطلب. وقد إكتسبت مكة هذه المكانة لا لوجود الكعبة بها أو لإزدهار تجارتها أو لموقعها الجغرافي فحسب، وإنما ينسبب ذلك الإرتقاء، كما يرى المؤرخ "فلهاوزن" إلى تفوق سكان مكة من قريش الذين إقتبسوا ألواناً عديدة من الحضارة وأجادوا القراءة والكتابة

١ حسيني: الإدارة العربية ص ٢٩.

وأصبح الملكيون أرقى من سائر البدو سكان الحزيرة العربية، بل أرقى من أهل يثرب المشتغلين بالزراعة، فقد عاش أهل مكة في طور صناعي تجاري بينما كان سكان يثرب لايزالون يمرون بالطور الزراعي، وعرفت مكة ألواناً من الخدمات البلدية والعناية بالمرافق العامة والطرق وتنظيم ملكية العقارات وكان الموسرون يشعلون نيراناً عظيمة فوق تلال مكة تكون منارات ترشد القوافل والضالين.

وكانت أشهر الحج أشهراً حرماً يحرم فيها القتال، فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال إلى مكة من كل مكان في الجزيرة العربية يشهدون الأسواق التي كانت تقام قبل الحج، والتي كانت تمارس أغراضاً إقتصادية ومباريات أدبية. وقد إهتمت قريش وأهل مكة بسوق عكاظ الذي أصبح مسرحاً للأدب والشعر، تتسابق فيه القبائل إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء. وكان لعكاظ في أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من خلاف. ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ وقفوا في عرفة ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون إلى مواطنهم.

ولما كانت مكة مركزاً للحج، فإن كبار المواطنين فيها وضعوا ترتيبات للخدمات البلدية في بلدتهم فتطوع الناس لإمداد الحجاج بالمياه ومهدت طرقات البلدة ومسالكها وعني بكنسها ونظافتها، وكانت معظم الطرقات ضيقة. وتعاون المكيون في سبيل وقف السيول التي قد تنحدر من سفوح الجبال المحيطة بمكة. وكان الأرقاء يقومون بنقل المياه من الآبار الكثيرة الموجودة خارج مكة إلى الكعبة ليمدوا الحجاج بحاجتهم من المياه.

وإتخذ كل حي من أحياء مكة مستودعاً خاصاً بها لنفاياتها. وكانت الإضاءة ليلًا نادرة عند العرب قبل الإسلام. فقد كان العرب يتناولون عادة عشاءهم قبل أن يحل الظلام. وجاء في أحد الأمثال العربية «خير العشاء

بواصره»أي ما يبصر فيه الطعام قبل هجوم الظلام. وكان الزيت شحيحاً في بلاد العرب، فقد كان زيت الزيتون يستورد من الخارج. ولذا لم يستخدم عرب الجاهلية عامة المصابيح وغقتصر إستعمالها على بيوت أعيان مكة الذين ساعدهم الثراء على إستيراد حاجاتهم من الزيت فكانت تجلبه قوافل مكة العديدة. وكان كبار أهل مكةالموسرون يضرمون نيراناً عالية فوق قمم الجبال وفي الأماكن المرتفعة لتكون منارات للسارين الذين ضلوا الطريق.

أصبحت مكة في عصر عبد المطلب تشبه مدينة روما القديمة في شبه جزيرة إيطاليا. فقد أوت إليها بضع قبائل بعد أن تعبت من حياة التنقل والإرتحال وتطلعت إلى السكون والإستقرار، فلجأت إلى تلك البقعة المقدسة من الأرض التي كانت وسطاً بين الجدب والخصب ووسطاً بين السهل والوعر. وأقامت تلك القبائل في مكة فصلي الربيع والخريف، أما الشتاء فكانت تمضيه في جدة على شاطىء البحر الأحمر، أما الصيف فكانت تقضيه في مدينة الطائف القريبة من مكة، والتي جادت الطبيعة عليها بهواء طيب ومحصولات أوفر، لكثرة أمطارها وإرتفاع أرضها"[١]".

إختارت هذه القبائل المقام في مكة لأنها مدينة عريقة، تقوم فيها الكعبة المقدسة، كما أنها سوق تزخر بالبضائع التي تفد عليها من ارجاء العالم القديم كالهند وفارس والصين والشام ومصر واليمن. وبدأ سراة هذه القبائل في بناء بيوت ثابتة حول الكعبة من الحجارة والآجر، وبدأوا يعتمدون على التجارة في مواردهم بدلًا من الوعي أو الزراعة"[٢]".

وشهدت مكة نهضة أدبية وأنتجت رجالًا نبغوا في السياسة والقيادة

---

١ حسيني: الإدارة العربية ص ٣٢.

٢ ثورة الإسلام ص ١٤١.

والإدارة قاموا بدور كبير بعد ظهور الإسلام"[1]".

١ جورجي زيدان: تاريخ التمدن جـ ١ ص ٤١.

٧ – بئر زمزم

بئر زمزم ومشكلة الماء في مكة:

مما إشتهر به عبد المطلب في التاريخ أنه قام بإعادة حفر بئر زمزم التي ما زالت قائمة حتى الآن يتبرك المسلمون بها. وكان لإعادة حفر هذه البئر دوي في أرجاء الجزيرة العربية.

كانت مكة تعاني دائماً من الجدب وقلة المياه وكان يمربها أحياناً مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أوأكثر. وفي بعض الأحيان كان ينزل المطر على شكل سيول لفترة قصيرة. وجاء وصف مكة في القرآن الكريم على لسان إبراهيم: «ربنا اني اسكنت من ذريني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم» ويروي المؤرخون أنه أطلق على مكة هذا الاسم لقلة مائها، فقد كان العرب يقولون امتلك الفصيل ضرع أمه، أي إمتصه حتى لم يبق فيه شيئاً.

إتجه إبراهيم بهاجر وإسماعيل نحوالحنوب حتى بلغوا الوادي الذي تقوممكة اليوم به. وكان هذا الوادي مضرب خيام القوافل التي ترحل بين الشام واليمن. وتركهما إبراهيم في هذا المكان بعد أن ترك لهما بعض التمر القليل من الماء. ثم نفذ الطعام والماء وأخذت هاجر تبحث عما يحفظ حياة وليدها إسماعيل وأخذت تسعى بين الصفا والمروة وأشفق المولى عز وجل عليهما ففجر بئرزمز م. روى ابن هشام"[١]"القصة فقال: «أن هاجر أخذت تبحث عن الماء فلم تجده فقامت إلى الصفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل ثم أتت المروة ففعلت مثل ذلك. وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام، فهمز له بعقبه في

---

١ سيرة ابن هشام جـ١ ص ١١١.

الأرض فظهر الماء، وسمعت أمه صوت السباع فخافت عليه، فجاءت تشتد نحوه فوجدته يفحص بيده عن الماء تحت خده ويشرب فجعلته حسياً». وجذب ظهور الماء قبيلة جرهم اليمنية فأقامت في هذا المكان وشب سماعيل في هذه القبيلة وتزوج من فتياتها.

وتحدث ياقوت الحموي"[1]" عن مصير زمزم فقال: «وتطاولت الأيام على ذلك حتى غورت تلك السيول وعفتها الأمطار فلم يبق لزمزم أثر يعرف» أيأن ياقوت يرى أن العوامل الجغرافية قد أزالت معالم زمزم. أما المؤرخون فينسبون إختفاء زمزم إلى أسباب تاريخية. فيرون أن سيداً من سادات مكة. وهو مضاض بن عمرو الجرهمي كان يعيش قبل عبد المطلب بنحو ثلاثمائة سنة كان قد إشتبك في حرب مع أعدائه إنتهت بهزيمته، وأدرك أن أعداءه لن يلبثوا أن يخرجوه من مكة، ورأى مضاض أن يحرمهم من مورد المياه الرئيسي في مكة، فأخفى في بئر زمزم بعض نفائسه وذهبه ثم ردمها وأخفى علاماتها وساعدته الطبيعة على احكام إخفائها فتكاثرت الرمال عليها حتى إندثرت، ثم هرب مضاض إلى بلاد اليمن وإضطر أهل مكة إلى البحث عن موارد جديدة للمياه، فحفروا آباراً خرى معظمها خارج مكة.

أقبل أهل مكة على حفر الآبار إذ أن المياه الجوفية هي المورد الوحيد للماء، فقد حرمتهم الطبيعة من الأمطار الغزيرة المنتظمة، كما حرمت مكة من الأنهار الجارية والمياه المتدفقة.

حفرت كل بطن من بطون قريش في رباعهم بئراً، فاحتفر بنو نميم بن مرة الجفر وهي بئر مرة بن كعب وحفر عبد شمس بن عبد مناف بئراً أخربوسماها

---

١ معجم البلدان جـ ١٠ ص ١٤٩.

"الطوى" وحفر هاشم بن عبد مناف بئر "بذر" وأباح للناس الإستفادة من مائها. وحفر هاشم أيضاً بئر "سجله" و ظلت ملكاً لبني هاشم حتى أعاد عبد المطلب حفر بئر زمزم فمنح هذه البئر إلى بني نوفل بن عبد مناف. وحفر امية بن عبد شمس بئر "الحفر" وإحتكر الإستفادة من مائها لنفسه. وحفرت بنو عبد الدار بئر "امأحراد" كماحضرتبنوجمحبشر "السنبلة" وحفرت بنو سهم بئر "الغمر". كما كان هناك عدة آبار في خارج مكة يرجع تاريخها إلى عهود زعماء قريش الأوائل منذ عهد مرة بن كعب وكلاب بن مرة، أشهرها بئر "رم" وقد حفرها مرة بن كعب بن لؤي وبئر "ضم" وقد حفرها بنو كلاب بن مرة"[1].

كان قصي بن كلاب جد عبد المطلب الأكبر يسقي الحجاج في حياض من أدم وكان ينقل الماء من آبار خارجة من مكة، منها بئر ميمون الحضرمي ثم احتفر قصي "العجول" في دار أم هانيء بنت أبي طالب وهي أول سقاية احتفرت بمكة، وكانت العرب إذا إستقوا منها إرتجزوا فقالوا:

نروى على العجول ثم نتطلق أن قصياً قد وفى و قد صّدق

فلم تزل العجول قاتمة طوال حياة قصي وبعد موته، حتى كبر عبد مناف ابن قصي فسقط فيها رجل من بني جعيل فعطلوا العجيل وغندفنت واحتفرت كل قبيلة بئراً.

إختلف المؤرخون في سبب تسمية بئر زمزم بهذا الاسم. فيذكر المسعودي: سميت زمزم لأن الفرس كانت تحج إليها في الزمن الأول فزمزمت عليها والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء، وقيل بل سميت زمزم لأنها زمت بالتراب، لئلا يأخذ الماء يميناً وشمالًا. ويروي

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٨ – ١٥٠.

المسعودي أيضاً أن الفرس كانت تعتقد انها من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام. وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم إبراهيم وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابل ويذكر ياقوت الحموي"[1]" ان زمزم سميت هذا الإسم لكثرة مائها فيقال ماء زمزم وزمازم. ويروي أن البعض: يرى أنها سميت لزمزمة جبرائيل عليه السلام وكلامه عليها. ولهذه البشر أسماء أخرى منها زمم وزمزم وزمازم وركضة جبرائيل وهزمة جبرائيل وهزمة الملك والركضة والهزمة هما المنخفض من الأرض.

الرؤيا:

تولى عبد المطلب السقاية فكان ينقل الماء من الآبار خارج مكة إلى أحواض إلى جوار الكعبة وكان عبد المطلب يلقى الكثير من المشقة فلم يكن له من الأولاد سوى الحارث. ثم حدث أن شهدت مكة عام جدب، إمتنع فيه سقوط الأمطار وكادت تجف مياه الآبار، وبدت في الأفق مشكلة كبرى فقد قدم آلاف الحجاج وأخذ عبد المطلب يفكر في وسيلة لتوفير الماء لهم.

وإنتهي موسم الحج وعاد القرشيون إلى مجتمعاتهم. وفي ليلة من ليالي الربيع إجتمعوا في دار عبد المطلب يتسامرون ثم ساقهم الكلام إلى ما عاناه عبدالمطلب لتوفير الماء للحجاج وحمدوا الله أن يحفظ سمعة قريش بين العرب وتذاكروا بئر زمزم وتمنوا لو توصلوا إلى مكانها. ورويامية بن عبد شمس، وكان عالماً بالأحداث الماضية، قصة مضاض بن عمرو الجرهمي وإخفائه مع المزمزم.

وتمنى عبدالمطلب في نفسه لو نجح في الكشف عن مكان زمزم فتعود

---

١ معجم البلدان جـ ١ ص ١٤٨ – ١٤٩.

مياهها إلى التدفق من جديد ليرتاح من مشكلة المياه في مكة.

يتحدث بعض المؤرخين القدماء عن الرؤيا التي رآها وأمر فيها بحفر زمزم.فيذكر ابن هشام"[١]"«ثم أن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر غذ أتي فأمر بحفر زمزم» وينسب ابن هشام قصة الرويا إلى المؤرخ ابن اسحق: «وكان أول ما ابتدأ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب

المصري، عن مرشد بن عبدالله اليزني عن عبدالله بن زرير الغافقي: أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم، حين أمر عبد المطلب بحفرها...»

روى عبد المطلب قصة رؤياه فقال: « اني لنائم في الحجر"[٢]"إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة"[٣]"قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة"[٤]". قال فقلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغدرجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة"[٥]". قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف"[٦]"أبداً ولا تذم"[٧]" تسقي الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم عند

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢.

٢ الحجر: فناء الكعبة.

٣ قيل لزمزم طيبة لأنها الطيبيين والطيبات من ولد إبراهيم.

٤ لأنها تفيض على الأبرار.

٥ لأنها تضمن على غير المؤمنين.

٦ لا تفرغ.

٧ لا يقل ماؤها.

نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل"[1]»».

وهكذا حددت الرؤيا مكان بئر زمزم فقالت أنها بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل. أما الفرث والدم فقد وصفه المؤرخون بأن ماءها طعام وشفاء سقم، أما عن الغراب الأصم ففيه إشارة إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليخبرن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. وأما قرية النمل ففيها من المشاكلة أيضاً والمناسبة: إن زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك وهي لا تحرث ولا تزرع، وقرية النمل كذلك لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب.

هذه هي رواية ابن هشام وهو من الثقات، وقد ردد خبر هذه الرؤيا كثير من المؤرخين والكتاب قدامى ومحدثون، ومن المؤرخين من لم يشر إلى هذه الرؤيا ومن هؤلاء: المسعودي إذ أغفل في كتابه "مروج الذهب" قصة الرؤيا وإكتفى بأن قال: «وقد كان حفر بئر زمزم وكانت مطوية وذلك في ملك كسرى قباذ فاستخرج منها غزالي ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سوابغ فضرب من الأسياف باباً للكعبة وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب وجعل الأخرى في الكعبة"[2]»».

صور الأديب الكبير الدكتور طه حسين في كتابه "على هامش السيرة" رؤيا عبد المطلب في صورة أدبية رائعة فقص الأديب قصة ذلك الهاتف الذي رآه عبدالمطلب في مضجعه ثلاث ليال يأمره بحفر طيبة أو بره أو المضنونة. وقد أصبح عبد المطلب بعد رؤياه في حيرة وقلق حتى أنه فكر في أن يقص أمره

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٣.

٢ المسعودي مروج الذهب ج٢ ص١٢٧

على الكاهن، ولكن خشي أن يظن به الكاهن الظنون، وتشيع المقالة فيسخر منه حرب بن امية والداته ويتندر عليه فتيان مخزوم. وظن عبد المطلب أنه ربما يكون هذا الهاتف ظل ميت من موتى قريش قد أنسبه قومه فهم لايزورونه ولا يقربون إليه. أو لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلح على الإنس فتفرض عليهم الطاعة ولعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالتضحية والقربان.

وفضل عبد المطلب أن يفضي بحيرته إلى زوجته الحبيبة سمراء طالباً مشورتها فقالت له: هون عليك ولا تغل في الخوف ولا تسرف في الإشفاق، ما أكثر ما يلم هذا الطيف بالناس عندنا في البادية فلا يحفلون ولا يأبهون ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنتإلى الآلهة في غير توسط للكاهن ولا توسل به قم فضح لهم وقرب إليهم فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون وسيغيظ ذلك قوماً من قريش.

وقضت مكة يوماً دامياً سميناً كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الأصنام وأوى عبد المطلب إلى مضجعه راضياً مسروراً فجاءه الهاتف مرة أخرى فقال: احفر زمزم، فتساءل عبد المطلب: وما زمزم؟ قال لا تنزح ولا تذم تسقي الحجاج الأعظم وهي بين الفرث والدم عند تقرة الغراب الأصم. فقال عبد المطلب: الآن قد وعيت.

عودة زمزم:

حددت الرؤيا لعبد المطلب المكان الذي إذا حفر فيه كشف عن بئر زمزم التي تدفقت في جهد جده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم، والتي أصبحت مكة في أشد الحاجة لإحيائها من جديد لتسد النقص الشديد في الماء الذي يعاني المكيون منه وخاصة زمن الحجيج. وكان هذا المكان الذي حدده الهاتف يقع بين الوثنيين اساف ونائلة وبقي على عبد المطلب أن يلي نداء الهاتف.

يروي ابن هشام"[1]" أن عبدالمطلب خرج للبحث عن مكان بر زمزم وأنه لم يصحب معه للقيام بهذا العمل الجثماني الشاق غير ابنه الحارث ويعلل ابن هشام ذلك بأنه «ليس له يومئذ ولد غيره».

ولكنا لا نعتقد أنه إكتفى بهذا الغلام وهو مقبل على عمل خطير يحتاج إلى بذل مجهود كبير من حفر إلى إزالة الرمال لأنه لم يرزق سوى هذا الغلام. فقد كان عبد المطلب زعيم مكة ورئيس قريش ويستطيع أن بحشد العشرات بل المئات من أبناء قريش أو مكة للبحث عن بئر جدهم إسماعيل وخاصة أن مشكلة المياه مشكلة عامة تمس حياتهم جميعاً.

ربما ظن عبد المطلب أن هذا الهاتف من قبيل اضغاث الأحلام أو هو من الشياطين العابثين أو من الأرواح الشريرة، فخشى عبد المطلب أن يقع في مكيدة او خداع، ورأى أن ينفرد هو وولده بالبحث عن بئر زمزم، حتى إذا أخفقا إحتفظا بسرهما دون أن يعلم أعداؤهما بالأمرفيصبحا موضع شماتتهم وسخريتهم.

وقد يكون عبد المطلب واثقاً من التوفيق مطمئناً إلىأنه سيكتشف بئر الأجداد التي أصبحت مكة في مسيس الحاجة إليها، وأن هذا الكشف سيكون له دوي كبير ورنة فرح في قلوب المكيين فرأى عبد المطلب أن ينفرد وإبنه بالمجد والسؤدد.

خرج عبد المطلب وابنه الحارث وقد حملا معولًا وهي الفأس الكبيرة ومكتلًا وهو زنبيل من خوص ومسحاة وهي مجرفة يجرفون بها الرمال وهي الأدوات التي سيحتاجانها للحفر وإزالة الرمال المتراكمة. وقصدا من فورهما

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٣.

إلى المكان الذي حدده الهاتف فوجدا قرية النمل ووجدا الغراب ينقر عندها بين الوثنين اسلاف و نائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما.

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد رآهما بعض القرشيين يحفران الأرض بين وثنيهما المقدسين، ولم يدركوا حقيقة الدافع لعبد المطلب وابنه على الحفر، وربما ظنوا أنهما يريدان إنتهاك حرمة هذين الوثنين، فقالوا لعبد المطلب: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبدالمطلب لابنه الحارث: ذد عني حتى احفر، فوالله لأمضين لما أمرت به. ولما رأوا إصراره على المضي فيما بدأ فيه خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه.

روى ابن هشام"[1]" أن عبدالمطلب لم يحفر إلايسيرًا حتى بداله الطمي فكبر وأدرك القرشيون أن عبد المطلب قد صدق ومضى عبد المطلب في الحفر وإذ به يجد ما لم يكن يتوقعه، فقد عثر على غزالين من ذهب، كما وجد أسيافاً وأدرعاً ثمينة، وهذه النفائس كانت لمضاض الجرهمي وقد طمرها في بئر زمزم قبل هربه من وجه أعدائه إلى اليمن حتى لا يعثروا عليها، وكان قد عجز أن يحملها معه إلى منفاه، وتراكمت الرمال مع السنين لتخفي هذه الذخائر عن العيون والأيدي.

ولكن عثور عبد المطلب على هذه النفائس خلق له إشكالًا لم يكن في الحسبان فقد نازعه القرشيون فيما وجد وقالوا له: لنا معك في هذا شرك وحق. قال: لا، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح، قالوا: كيف تصنع؟ قال: إجعل للكعبة قدحين ولكم قدحين فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصفت فجعل عبد المطلب

١

قدحين أصفرين للكعبة وقدحين إسودين لعبدالمطلب وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا القداح إلى صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل. وكان هبل هذا صنماً في جوف الكعبة وهو من أعظم أصنامهم. وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، فضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الإسودان على الاسياف والأدرع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة وضرب في الباب الغزالين الذهبيين.

ويروي ابن هشام"[1]"أيضاً رواية أخرى حول موقف القرشين من العثورعلى هذه الذخائر الذهبية في بئر زمزم. فروى أن القرشيين قد أرادوا أن يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها قال: ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم. فقالواله: فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. ووافق عبد المطلب على إقتراحهم، وكانت هذه الكاهنة تسكن عند مشارف الشام.

ركب عبدالمطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبدمناف وركب من كل بطن من بطون قريش نفر فخرجواحتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام نفد الماء من عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلاك، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا: أنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٤.

قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلاتبع لرأيك فمرنا بما شئت. قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه ما بكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حى يكون آخركم رجلًا واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً. قالوا: نعم ما أمرت به. فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن القاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجز فعسى الله أن يرزقنا ماء بعض البلاد ارتحلوا.

بدأ عبد المطلب وصحبه يستعدون للرحيل وأخذ من معهم من بطون قريشينظرون إليهم ما هم فاعلون وتقدم عبد المطلب اإلى راحلة فركبها فلما إنبعثت به إنفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، وإستقوا حتى ملئوا أسقيتهم، ثم دعا القرشيين فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، وأقبل القرشيون على الماء ينهلون منه وما لبثوا أن قالوا لعبد المطلب: قد والله قضي علينا يا عبد المطلب والله لا تخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى ساقيتك رشدا. وعاد عبد المطلب ومن معه أدراجهم إلى مكة وقد إستغنوا عن قصد الكاهن وخلوا بين عبد المطلب وبئر جده إسماعيل.

نتائج الكشف عن زمزم:

وهكذا تدفق الماء من جديد من بئر زمزم تروي الزرع وتنشر الخير وتكسو الأرض خضرة رائعة وإطمأن عبد المطلب إلى توفير الماء للحجاج وإرتفع ذكره بين العرب جميعاً.

أصبحت الأسياف والأدراع والغزالتان حلية للبيت الحرام. ولكن بريق

الذهب جعل بعض اللصوص يتسللون في جنح الظلام إلى الكعبة وجردوها مما تتحلى به من ذهب وأسياف ودروع ولكن زمزم لا زالت قاتمة تفيض بالخير العميم.

تعجب "مرجوليوث" في كتابه "تاريخ محمد" من تجشم عبد المطلب هذه المتاعب والمشاق ليوفر للحجاج حاجتهم من الماء وظن أن عبد المطلب كان يبيع هذا الماء الحجاج فيربح من بيعه ربحاً طائلًا. وقد رد عليه أحد الكتاب"[١]" المحدثين رداً مقنعاً فقال: وغني عن البيان أن مرجوليوث يقيس على بعض بلاد أوربا الغربية حيث لا يقام للكرم وزن إلا نادراً فلا يتصور رجلًا يضيع ماله على الجود وصنع الخير لأنه في معظم بلاد أوربا لا يستطيع الرجل أن يشرب جرعة ماء بلا مقابل، دع عنك الطعام فكيف يصح في ذهن مرجوليوث وأمثاله أن عبد المطلب ينقل الماء ويضع فيه التمر والزبيب للحجاج تقرباً منه لله وخدمة عامة للجماعة المكية، ولكن الشرق كريم والماء ملك مشاع بين القبائل.

تحدث ابن هشام"[٢]" عن نتائج الكشف عن زمزم فقال: «فعفت"[٣]" زمزم على البئار التي كانت قبلها يسقى عليها الحاج وإنصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ما سواها من المياه ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وإفتخرت بها بنو عبد مناف وهو يفخر على قريش بما ولوا عليها السقاية والرفادة وما أقاموا للناس من ذلك وبزمزم حين ظهرت لهم، وانفاً كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد شرف بعضهم لبعض شرف وفضل بعضهم لبعض فضل».

---

١ لطفي جمعة: ثورة الإسلام ص ٢٥٦.

٢ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٠.

٣ عفت علي البئار: غطت عليها وأذهبتها.

مر عبد المطلب خلال حفر زمزم بتجربة خطيرة وإستعاد الأحداث التي مر بها فتذكر كيف كان ولده الوحيد يعاني من الحفر و هو لايزال محدثاً وتذكر موقف القرشين منه وكيف تجرأوا عليه فطلبوا أن يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس. شعر عبد المطلب بضعفه وقلة أهله وتحركت في نفسه رغبة جديدة هي الإكثار من النسل. تقدم عبد المطلب إلى عمر بن عائذ المخزومي فخطب إليه ابنته فاطمة فبنى فيها ورزقها الله منه ما شاء من الأولاد.

كبرت أسرة عبد المطلب منذ صار له من الأولاد الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبدالله، ومن البنات: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم، وأحيحة، وأروى. وكانت أمنية عبد المطلب أن يصبح له عشر بنين، وقد نذر إذا تحققت الأمنية أن ينحر أحدهم عند الكعبة تقرباً لله.

٨ - الكعبة وحملة الفيل

العرب بين الفرس والروم والأحباش:

في عهد عبد المطلب وقع حادث عظيم خلده القرآن الكريم وأسهبت المصادر التاريخية في الحديث عنه. فقد حاول الأحباش يقودهم أبرهة غزو بلاد الحجاز وفتح مكة وهدم الكعبة. وكانت هذه هي أول محاولة لجيش أجنبي لغزو بلاد الحجاز وكان الفرس والروم قد فكروا مرارًا في غزو بلاد الحجاز من الشمال ولكنهم عدلوا عن هذه المشروعات لإستحالتها. ثم كانت هذه المحاولة الحبشية بإيعاز من الروم لغزو الحجاز من الجنوب ولكن خاب فألهم فللكعبة رب يحميها ويرد عنها المعتدين.

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والإستعمار الأجنبي. فلم تكن لهذه البلاد خيرات أو مميزات تجذب الفائح وتشجعه على تحمل وعورة السطح وقسوة المناخ بل إن هذه البلاد لا تجود حتى لسكانها ما يمكنهم من حياة رغدة.

وصف المؤرخ "سيديو"[١] بلاد الحجاز فقال: إن الحجاز يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره لإشتماله على أكثر مدائن العرب. ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة وهي مساكن القبائل وحول هذه الآكام قرى وضياع وهي قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الأعداء وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التي تستعمل علفاً للماشية وبها عيون ماء كثيرة.

---

١ تاريخ العرب العام.

وتحدث المؤرخ "واشنجتون ارفنج"[1] عن مدى تعرض الجزيرة العربية الغزو فقال: ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأسباب التي جعلت أحوال العرب ثابتة على مر الزمن. فقد كان وضعهم الجغرافي وصحاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهمفي الإستقلال الديني والسياسي إلىأن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار.

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو أنها نجحت في بسط سلطانها على إقليم الحجاز فقد كانت الدولتان قبل ظهور الإسلام تتنافسان على مناطق النفوذ، ولكن وعورة الطرق الموصلة إلى الحجاز وطول خطوط الإمدادات والتموين وجدب الصحراء، وعدم وجود جيش عرفي مركزي توجه إليه الدولة الفارسية أو الدولة الرومانية جيوشها وجهودها أدى إلى بقاء الحجاز في أيدي أصحابه من العرب بعيداً عن السيطرة إلاجنبية.

حتى إذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسي على بلاد الحجاز إتجهوا إلى بلاد اليمن حيث كانت تحكمها الدولة الحميرية العربية. وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومأنية، وأدرك الفرس حقيقة أهداف الرومان فعملوا على الوقوف في وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية في الخليج الفارسي.

كانت اليهودية قد أنتشرت في بلاد اليمن في العصر الحميري وإعتنقها أحد ملوك الحميريين وهوذ ونواس، وأخذ يضطهد المسيحيين فهاجم نجران معقل الجالية المسيحية وخيّر أهلها بين الإرتداد عن المسيحية أو القتل فاختاروا

---

١ حياة محمد ص ١٩ "من ترجمة مولف هذا الكتاب".

الاستشهاد من أجل عقيدتهم فقتلهم حرقاً في الخنادق. وكان الإمبراطور البيزنطي يعتبر نفسه حامياً للمسيحيين، ولذا غضب لما نزل بالمسيحيين في نجران، وكتب إلى نجاشي الحبشة يأمره بغزو اليمن والانتقام من ذوي نواس وإستجاب النجاشي لنداء الإمبراطور فبعث جملة تتألف من سبعين ألف رجل بقيادة "أرباط".

كانت الحبشة حينئذ في ذروة مجدها، تجري يأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر لها العباب أسطول قوي يجعلها تتسلط بتفوذها على ما حاذاها من البلاد وكانت حليفة الإمبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر إلاحمر، كما كانت يزنطة رافعة علمها على البحر المتوسط"[١]".

انتصر الأحباش على ذي نواس والحميريين سنة ٥٢٣م، وقد روى الطبري"[٢]"أن ذا نواس همز جواده وإقتحم أمواج البحر ولم ير ثانية، وهكذا كانت خاتمة آخر حميري انتهى بذهابه عصر إستقلال اليمن.

تظاهر الأحباش أنهم قدموا للإنتقام من ذي نواس لما حل بالمسيحيين في نجران، ولكنهم كأنوا يتخذون هذه الحجة ستاراً يخفون وراءه أغراضهم الاستعمارية. فقد أصبح أرباط حاكماً على بلاد اليمن وظل يتولى أمور هذه البلاد حتى أخد عليه قواده إنحيازه إلى فريق منهم في توزيع العطاء والغنائم، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه. وبذلك خلا الجو لأبرهة. فولي الحكم في اليمن بدلًا من أرباط"[٣]".

أقام الأحباش في اليمن كفاتحين وأنقلبوا مستعمرين، وظلوا من سنة ٥٢٥

---

١ هيكل : حياة محمد ص٣٦

٢ الطبري جـ٢ ص ١٠٩.

٣ سيرة ابن هشام جـ١ ص ٤١.

– ٥٧٥ م يهيمنون على بلاد اليمن واستثمروا مواردها الإقتصادية لمصلحتهم.

كنيسة صنعاء وكعبة مكة:

إتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة في بلاد اليمن وبنى فيها واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهي التي يسميها كتاب العرب "القليس" وهي مشتقة من كلمة يونانية "اكليزيا". ومعناها كنيسة. وقد أراد الأحباش أن تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى في بلاد اليمن ثم تمد هذه الدولة نفوذها فيما بعد على شبه الجزيرة العربية فيصلون بذلك بين دولة إلاحباش المسيحية والدولة الرومأنية الشرقية "البيزنطية" التي تمتد إلى مشارف الجزيرة العربية حيث تقوم إمارة الغساسنة.

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة، ويرى الدكتور "حيّ"[١]أن إلاحياش المسيحيين كأنوا ينوون تنصير البلاد وخلق منافس لمكة الوثنية التي كأنت مركز الحج في الشمال لأن الحج كأن مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون في تلك المدينة التي كأن يسافر إليها الحجاج أو على مقربة من الطرق التي كانت تؤدي إليها. وقد نجح إلاحباش بتأسيس ذلك المعبد الديني في الجنوب في اجتذاب الجماهير، وأصبح المنافس إلاقتصادي عظيماً. ويذكر إلاستاذ الدكتور طه حسين[٢]أنأبرهة رغم أنه بذل جهداً كبيراً في ترغيب الناس في أن يتخذوا من كنيسته بصنعاء كعبة لهم إلاأن العرب كأنوا أهل ثلنية ولجاج في الوثنية فكأنوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطأنه ويبتغون عنده المعروف ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الإستجابة له، وكأن الذين بختلفون

---

١ تاريخ العرب ص ٦٧.

٢ على هامش السيرة ص ١٤١.

إلى كنيسته قليلين مهما كثروا.

سميت هذه الكنيسة "القليس" لإرتفاع بنائها وعلوها وقد استذل أبرهةأهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة، وجشمهم فيها ألواناً من السخرة وكأن ينقل إليها الرخام الجزع والحجارة المنقوشة بالدهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكأن من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ومن شدته على العمال كان العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يبدأ عمله قطعت يده.

كتب أبرهة إلى النجاشي أنه يريدأن يصرف حجاج العرب إلى كنيسته ويحول تجارة قريش إلى صنعاء، وجاء في رسالته: «بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تين العرب ولا العجم مثله ولن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم.

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وإنتهك حرمتها. وغضب أبرهة لذلك أشد الغضب وأقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين. وتحدث ابن هشام"[1]" عن أثر قسم أبرهة في العرب فقال: «وسمعت بذلك العرب، فاعظموه وقطعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء إلىأبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي أرسله إليهم ملكاً، فزادت ثورته وأمر بالإستعداد في حالة للقتال والرحيل إلى مكة وبعث برسالة إلى النجاشي ينبئه باستعداده للحرب، ويطلب منه أن يمده بالجنود والفيلة، واستجاب النجاشي لطلبه ونجح أبرهة نى

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٥.

تكوين جيشى كثيف العدد كامل العتاد.

لم تكن محاولة الأحباش هدم الكعبة في مكة هي المحاولة الأولى لهدم هذا المكان المقدس. فقد كأن بعض أهل اليمن قديماً يرجون الخلاص من الكعبة إما بهدمها أو الإستحواذ عليها.

كان أهل اليمن قد بدأوا يهاجرون إلى أرجاء الجزيرة العربية ولفتت مكة أنظارهم واسترعت إنتباههم وفكر بعضهم في الإستيلاء عليها للإستفادة مما كان الحجإلى الكعبة يعود به من منافع مادية، واختلفت خطط تبايعة اليمن فبعضهم يريد هدم الكعبة فتصده القبائل المحيطة بالحرم خزاعة أو قريش ويدنو بعضهم من الكعبة فيعظمها ليستولي عليها بالحيلة.

قدم قوم من هذيل من بني لحيانإلى "تبع" باليمن ينبئونه أن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه، وتنحر عنده، وأن قبيلة قريش تولى الإشراف عليه، فحازت المجد والشرف، وإقترح القوم على تبع أن يخرج لهدم الكعبة، وأن يبني بيتاً آخر باليمن فيحوز ما حازته قريش.

خرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة، ولكن سرعان ما تأثر بما لبيت الله الحرام من رهبة وقدسية، فقد أحجم عن هدمه، بل كساه ونحر عنده. ويعلل المؤرخون هذا التحول جبوب رياح وعواصف شديدة أوقعت الإضطراب في خيام اليمنيين مما أثار مخاوفهم وجعلهم يعدلون عن هدم الكعبة بل تقربوا لها بالهدي، وعاد تبع إلى اليمن يجر أذيال الخيبة ليعاقب هؤلاء الهذيليين الذين خدعوه وجعلوه يقوم بهذه المحاولة الفاشلة.

مع أبرهة إلى مكة:

رأينا أبرهة وقد ملأته الحماسة وهزه الغضب، فعزم على أن بهدم الكعبة.

وقد استعرضنا آراء كثيرة العديد من المؤرخين، فرأينا من يرى أنأبرهة قد أراد أن يتخلص من الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته بصنعاء ليحوز ما تستفيده قريش من قدوم الحجاج في كل سنة. ورأينا من المؤرخين من أشار إلى رغبة أبرهة في تنصير العرب جميعاً، ورأينا منهم من ذهب إلىأنأبرهة أراد أن يقود حملة تأديبية لتأديب العرب الذين إنتهكوا حرمة كنيسته فلطخوها بالقاذورات والجيف.

ونحن نؤمن بصحة هذه الآراء جميعاً، ونرى أنها تكاتفت جميعاً على دفع أبرهة للقيام بغزو مكة والشروع في هدم الكعبة، فكأن ما يسميه التاريخ بحملة الفيل أو حرب الفيل.

ولكننا نضيف إلى هذه العوامل جميعاً عاملًا شخصياً يمسأبرهة وعلاقته بملكه نجاشي الحبشة. فقد أقدم أبرهة على قتل أرباط قائد النجاشي الذي هزم ذا نواس وإنتزع بلاد اليمن من العرب الحميريين. وأدى قتل أرباط إلى إثارة غضب النجاشي وسخطه على أبرهة، فبعث يتوعده وأقسم أن يطأ أرض اليمن ويقطع رأس أبرهة.

وخشي أبرهةأن يبر النجاشي بقسمه، فبعث برسالة يطلب فيها العفو ويبرر ما أقدم عليه، فقال: أيها الملك، إنما كان أرباط عبدك، وأنا عبدك، اختلفا في أمرك وكلنا طاعة لك، إلاأني كنت أقوى على أمر الحبشة منه، وأضبط وأسوس، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك، وبعثت به إليه مع جراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر بذلك قسمه.

ويبدو أن النجاشي رأى أن يخضع لواقع الأمر، فعفا عن أبرهة ليضمن ولاءه، وحتى لا يهدد أبرهة وحدة الجيش الحبشي بالإنقسام، فكتب النجاشي لأبرهة: «اثبت بأرض اليمن حتى يأتيک أمري».

خرج أبرهةعلى رأس الجيش الحبشي قاصداً مكة، وقد امتطى ظهر فيل كبير اسمه "محمود" وسارت خلفه عدة أفيال على عادة الأحباش، ولم يكن طريق أبرهة إلى مكة سهلًا ميسوراً، فقد قابلته عقبات وصعوبات كأن أولها اعتراض رجل من أشراف اليمن يقال له «ذو نفر»، فقد إستنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله، وكأن ذو نفر حليفاً لقبيلة قريش، ولكنه لم يستطع الصمود طويلًا أمام جيشأبرهة الكثيف العدد، الزاخر بالسلاح والفيلة، فلحقت به الهزيمة ووقع في أيدي الأحباش أسيراً، وأراد أبرهةأن يقتله فاستعطفه ذو نفر وقال:

أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي فعفا أبرهة عنه. وحبسه عنده في وثاق"[1]".

بلغ جيش أبرهة تهامة اليمن، فخرج قوم من أهلها اشتهروا بالبأس والشجاعة، وهم بنو خثعم، بقيادة زعيمهم نفيل بن حبيب الخثعمي، وكان جيشه يتألف من جميع بطون خثعم وأشهرها شهران وناهس: واستبسل بنو خثعم في القتال، ولكن أبرهة نجح أخيراً في هزيمتهم، وأسر رئيسهم قفيل، وأراد قتله. وربما كان نفيل محباً للحياة، فقد استعطف أبرهة وطلب عفوه عنه فقال: أيها الملك، لاتقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم، شهران وناهس، بالسمع والطاعة"[2]". وعفا أبرهة عنه، وتقدم نفيل ليدل الأحباش إلى الطريق الذي يقودهم إلى مكة.

مضى الجيش الحبشي في طريقه، حتى بلغ مدينة الطائف، أجمل مدن الحجاز وأخصبها، فخرجت إليه قبيلة ثقيف بزعامة مسعود بن معتب يعلنون

---

١ سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٦.

٢ سيرة ابن هشام جـ٢ص ٤٦.

لأبرهة ولاءهم وميلهم إلى السلام، وغالوا في استعطاف أبرهة فقالوا: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد –يعنون اللات– إنما نريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه"[1]"».

وكأن هذا الدليل هو أبو رغال الذي قادهم إلى المغمس على مشارف مكة: وهناك وافت المنية أبا رغال. وسخط العرب على أي رغال هذا فاعتادوا رجم قبره.

كانت منزلة قبيلة ثقيف في الطائف على مثيلة منزلة قريش في مكة. وكانت القبيلتان تتنافسن وتتحاسدن. وقد حاولت ثقيف أن تنافس قريشاً في ميدان التجارة، فكانت لها قوافلها التي ترحل دائماً بين العراق واليمن، مثلما كانت قبائل قريش ترحل بين الشام واليمن، وقد بنت ثقيف في الطائف بيت اللات ليكون لها بيتاً مقدساً ككعبة قريش. ولذا لا عجب أن ثقيفاًكانت تتمنى أن ينجح أبرهة في هدم الكعبة والقضاء على مجد قبيلة قريش،

فترث ثقيف مكانتها بين القبائل العربية.

اخفاق حملة الفيل:

خرج أبرهةعلى رأس الجيش الحبشي قاصداً مكة، وقد امتطى ظهر فيل كبير اسمه "محمود"، وخلفه عدة أفيال على عادة الأحباش. نزل أبرهة "المغمس" وهو موضع على ثلثي فرسخ من مكة، وبعث بفريق من جنده استولى على كثير من أموال قريش ومتاعها ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هشام زعيم قريش. وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس قتال

---

١ سيرة ابن هشام جـ٢ص ٤٧.

الأحباش، فرأوا أن لا طاقة لهم بهم.

ثم بعث أبرهة رسولًا إلى مكة يدعى حناطة الحيري وقال له: سل عن سيد هذا البلد ثم قل له أن الملك يقول لكم إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإن لم يرد حربي فيه. ونقل حناطة الحديث إلى عبد المطلب فأجاب عبد المطلب: والله ما نر بد حربه وما لنا بذلك من طاقة، حنا بيت الله وبيت خليله إبراهيم. فطلب حناطة من عبد المطلب أن يصحبه للقاء أبرهة.

انطلق عبد المطلب مع حناطة يصحبه بعض أبنائه حتى بلغ معسكر أبرهة، وقام ترجمان يجيد لغتي العرب والأحباش بالترجمة، فسأل الترجمان عبد المطلب عن حاجته فأجاب: حاجتي إلى الملك أن يرد علي مائتي بعير أصابها لي. وتعجب أبرهة من مقال عبدالمطلب وقال للترجمان: قل له كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمني فيهظ فأجاب عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وأن للبيت رباً سيمنعه. فقال أبرهة: ما كان ليمنع عني. فقال عبد المطلب أنت وذاك"[1]".

عرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا بهدم البيت فأبى أبرهة إلا أن يمضي في تنفيذ ما قدم من أجله. وعاد عبد المطلب إلى مكة غاضباً وهو ينشد:

يا أهل مكة قد وافاكم ملك مع القيول على أنيابها الزرد

---

١ سيرة ابن هشام جـ٢ص ٥٠.

هذا النجاشي قد سارت كتائبه مع اليوث عليها البيض تقد

يريد كعبتكم والله مانعه كمنع تبع لما جاءها حرد

وأمر عبد المطلب قريشاً أن تلحق بطون الأودية ورؤوس الجبال، وقدم الإبل التي استردها من أبرهة هدياً للكعبة. ووقف ياب الكعبة وهو يقول"[1]":

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا فامنعهم أن يخربوا قراكا

أخفقت المفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، وأصبح السلام مستحيلًا وبقي تحكيم السيف واستعد أبرهة لدخول مكة وهدم الكعبة. وبدأ الجيش الحبشي الرحيل، وكان بين المكان الذي عسكر الجيش فيه وبين مكة مسيرة ثلاثة أيام.

برله الفيل "محمود"، فكان إذا دنا مته ساسته لينهضوه نهض معهم، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد. ويجدّ ساسته بعد ذلك في انهاضه فلا يبلغون منه شيئاً يحثونه ويؤذونه ويضربونه، ويبلغون به أقسى ما بهيج الفيل فلا ينهض، حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض مهرولًا، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم"[2]".

ثم جاءت خاتمة المأساة، ويروي المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب أحداً منهم

---

١ السعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٨.

٢ على هامش السيرة ص ١٤٦.

إلا هلك"[1]". ووصف المؤرخ المسعودي"[2]" مصير الجيش فقال: «فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار، فأهلكهم الله عز وجل».

وخلد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي الكبير، فنزلت سورة الفيل: "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرًاأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول".

يرى بعض المؤرخين أن الطير الأبابيل وحجارة السجيل كناية عن وباء إجتاح الجيش الحبشي، ويذكر ابن اسحق والأزرقي أن أول ما عرفت الحصبة والجدري بأرض العرب هذا العام.

هلك معظم جند أبرهة، ونجت القلة القليلة. وممن نجا أنيس سائس الفيل وخادمه وقد لجأإلى مكة وعاشا بها إلى أن شاخا وعميا ورأتهما السيدة عائشة أم المؤمنين يتسولان في شوارع مكة. أما أبرهة فقد مسه حجر فصرع: وظهر على جسمه بلاء عظيم، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات.

نتائج إخفاق حملة الفيل:

كان قدوم جيش أبرهة إلى مكة على هذه الصورة التي شهدناها حدثاً خطيراً، وتجربة قاسية تعرض لها عبد المطلب وقريش وأهل مكة. وتطلع العرب إلى ما تخبئه الأيام، ولكن الله سبحانه وتعالى دافع عن بيته الحرام، وتصرف عبد المطلب بحكمة وحسن تدبير، فجنب قومه الأخطار والمهالك: ولذا لا عجب أن إرتفع ذكره وعظم شأنه بين العرب جميعاً.

---

١ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٢.

٢ مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٨.

تحدث المؤرخ "براون"[١] عن غزو الأحباش للكعبة فقال: إن عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد في تاريخ العرب القومي. وتحدث الدكتور هيكل[٢] عن نتائج هذه الحملة فقال: زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية. وزاد تبعاً لذلك، في مكانتها التجارية، وزاد أهلها إنصرافاً عن التفكير في شيء غير الإحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة، ومحاربة كل من يحاول الإنتقاص منها أو الإعتداء عليها وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف في هذه الجهة الصحراوية الجرداء.

وعادت الحياة الهانئة الوادعة إلى مكة بعد هذا الحادث، فأخذ أهلها يجلسون في كل صباح ومساء إلى جانب نيف وثلاثمائة صنم، يقص بعضهم على بعض أخبار البادية وما يقع في مدن الحجاز والحيرة والغساسنة.

أعظمت العرب قريشاً وقالوا: «الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم» فجعلوا يقولون في ذلك الاشعار، قبل نزول السورة الكريمة بأربعين عاماً. وجاءت هذه السورة لتأييد التاريخ وإظهار محبة الله للبيت الحرام حتى قبل البعثة المحمدية، فقد أمر الله إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة لإحياء كلمة التوحيد التي يعيدها محمد، وقد حمى الله الكعبة لتكون بعد أربعين عاماً كعبة المسلمين وقبلتهم"[٣].

كان إخفاق حملة الفيل معجزة كبرى، وشاء الله أن يمعن في الإنتقام من الأحباش لإقدامهم على محاولة هدم الكعبة، فما لبث أن أزال حكمهم من بلاد

---

١ Lit, Hist, of Persia

٢ حياة محمد ص ٦٤.

٣ ثورة الإسلام ص ٢٧٢.

اليمن، فخلت الجزيرة العربية من آثار النفوذ الحبشي.

بعد فترة وجيزة من هزيمة أبرهة، قامت حركة وطنية في دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذي يزن الحميري الذي سعى في إنقاذ قومه من الأحباش، فسار إلى ملك الحيرة العربي ليتوسط له لدى كسرى أنوشروان ليمده بقوة يستعين بها في إخراج الأحباش من بلاد اليمن وكان العرب المسيحيون في تلك البلاد يتطلعون إلى الحماية والرعاية من الروم، كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم. فلما إستنجد سيف بن ذي يزن بكسرى، أمده بحملة سنة ٥٧٥ م بقيادة وهرز وقد تغلب القائد على الأحباش في اليمن بقيادة مسروق بن أبرهة، وأنقذ وحدة البلاد من حكمهم البغيض"[١]".

فرح عبد المطلب لخلاص بلاد اليمن، والجزيرة العربية كلها، من النفوذ الحبشي، وشعر بالحبور إذ تولى أمر بلاد اليمن عربي هو سيف بن ذي يزن، وعبر عبد المطلب عن حبوره وسروه، بأن رأس وفداً من وجوه قريش، وخرج بهم من مكة إلى بلاد اليمن لتهنئة ابن ذي يزن بإنتصاره على الأحباش وتوليه السلطة في بلاده، وكان من أبرز هؤلاء الوجوه أمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد، وألقى عبد المطلب خطبة طويلة في حضرة ابن ذي يزن، ورد عليه هذا بخطبة مثلها.

رحب ابن ذي يزن بعبد المطلب وقال له: مرحباً بابن أختنا. فقد كانت سلمى أم عبد المطلب من الخزرج، وهم من اليمن من سبأ، وكان سيف من حمير من سبأ.

---

١ جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ٢٨.

كان إخفاق حملة الفيل محوراً لنشاط أدبي كبير، فقد إتخذه كثير من الشعراء موضوعاً لقصائد عصماء. نذكر منهم عبدالله بن الزبعري، وأبو قيس بن الأسلت، وطالب ابن أبي طالب بن عبد المطلب وأبو الصلت بن ربيعة الثقفي، والفرزدق، وعبدالله بن قيس الرقيات، وغيرهم .

أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون إلى عدد من الألفاظ العربية ذكروا أنها من أصل حبشي، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الإسلام، وقد ورد بعضها في الشعر الجاهلي"[١]".

خلفت حملة أبرهة فلولا هاربة مما لحق يجيش أبرهة. لم تر بدا من الحياة في مكة. فيذكر الأزرقي"[٢]": «وأقام بمكة فلال من الحبش وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويزرعون لمكة».

ولما ظهر الإسلام بمكة، أسرع عدد وافر من هؤلاء الأحباش إلى إعتناقه: فجر ذلك عليهم إضطهاد أوليائهم وقبائلهم، كما كان من أسباب إشتداد الخصومة بين الرسول وقريش. من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع: وبلال، وعامر بن فهيرة، ووحشي قاتل حمزة يوم أحد، وصؤاب حامل لواء قريش في ذاك اليوم كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر بعضهم من الرق"[٣]".

كان إخفاق أبرهة حادثة تاريخية، وفاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة، حتى أنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم. فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها، ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنفية، إذ

---

١ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٦ ص ١٩٣.

٢ الأزرقي: أخبار مكة ص ٩٧.

٣ العبادي: صور من التاريخ الإسلامي ص ٢١.

لو أتيح لهذا الجيش الحبشي النصر والظفر لتغير وجه التاريخ، وإنتشر الدين المسيحي بين العرب، وإنصرف الناس عن مكة إلى صنعاء"[1]".

ولد الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الفيل: وتاريخه ٥٧٠م. وحملة الفيل هي «حرب السبعين» في جزيرة العرب التي باء فيها الأحباش واليمنيون بالحسران. وكان عام النهضة بمولد نبي المستقبل، وفوجيء عبد المطلب في هذا العام بكوارث عدة منها موت ولده عبدالله، وهجوم الأحباش على وطنه، وإنزعاجه بضياع ابله التي كافح لدى أبرهة في إستردادها حتى أعادها إلى قوافل الميرة. ولكن الله عز وجل عوضه بمولد حفيده الكريم محمد عن هذه الكوارث جميعاً. فكان مولده إيذاناً بشروق شمس الهدى في الجزيرة العربية.

نقد وتحليل لموقف عبد المطلب:

إتخذ عبد المطلب سياسة الدفاع بدلًا من الهجوم، وفاوض أبرهة من أجل الجلاء عن مكة والعودة من حيث أتى، ولم يبادره بالهجوم أو القتال. فهل أتت هذه السياسة بالفائدة المرجوة منها؟ ونستطيع أن نقول ان عبد المطلب كان حكيماً في إتخاذه هذه السياسة، بل أنها كانت السياسة الوحيدة التي يمكن إنتهاجها في مثل هذا الموقف الحرج.

كان الجيش الحبشي كثيف العدد، يزخر بالسلاح والعتاد، وقد بذل أبرهة جهداً كبيراً في إعداده وغمداده بالذخائر والتموين، وإستعان بما وجده في بلاد اليمن، وبما أرسله النجاشي له من الحبشة، فقد بعث له بالرجال والسلاح والفيلة. وهو جيش منظم، إعتاد الحرب، وخبر فنون القتال، وهو الجيش الذي نجح في القضاء على المملكة الحميرية، وهو جيش الإحتلال الذي يستعين به

---

١ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥١.

الأحباش لتدعيم الإستعمار الحبشي في بلاد اليمن.

أدرك أهل مكة أنهم عاجزون عن مواجهة أبرهة، إذ أن ذلك يعرضهم ويعرض مكة للهلاك. وكانت قبيلة قريش قبيلة تجارية ولم تكن قبيلة حربية، بل إنتهجت سياسة سلمية في الجزيرة العربية، لتضمن سلامة قوافلها التجارية ذات الأهمية الإقتصادية الكبيرة، وقد وصف الجاحظ قبيلة قريش وعدد مزاياها، فوصفها بالكرم والسخاء، والعقل والدهاء، والسياسة والتدبير، ولكنه لم يتحدث عن ميلها للحرب أو الغزو وتحدث المؤرخ كرد علي عن قريش فقال: أخذت قريش تضرب في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر وكسرى بالعراق تجعل من أرضهم متجراً لها، ذلك لأن قريشاً زهدت منذ زمن بعيد في الغصوب، فلم يبق لهم مكسبة سوى التجارة، وبالتجارة عرفوا ما جاورهم من الأمم والشعوب وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء.

أيقنت قريش بعدم جدوى القتال لتفوق الجيش الحبشي في العدد والسلاح والإمدادات. ويؤكد المؤرخون القدامى أن قريشاً رغبت في أول الأمر في القتال ولكنها غلبت الحكمة والعقل، فيروي الطبري"[1]": «فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله، ورأوا أن لا طاقة لهم به، وأدرك عبدالمطلب محكمته وحسن تدبيرهأنه عاجز عن صد هذه الأعداد الكبيرة من الجند الأحباش، بل إعترف بذلك لرسول أبرهة اليه فقال: «والله ما نريد حربه "أي أبرهة" وما لنا بذلك من طاقة».

كانت مدينة مكة مقدسة إذ بها بيت الله الحرام، ولذا حرص العرب على أن يسود السلام هذه المدينة، وأن يجنبوها الحرب والقتال. وقد جعل عبد

---

١ الطبري: جـ ٢ ص ١١١.

المطلب مكة «مدينة مفتوحة»وهي السياسة التي شهدناها في بعض مدن أوربا في الحرب العالمية الثانية، فقد أصبحت هذه المدن مدناً مفتوحة لأهميتها الحضارية وللحفاظ على ما فيها من تراث بشري. وقد أعلن أبرهة أنه لم يقدم للحرب وحدد أهدافه بهدم الكعبة فقال لعبد المطلب: «إني لم آت لحرمكم، إنما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة إلي بدمائكم». ولذا رأى عبدالمطلب ألا يكون البادىء بالقتال، كما أن أبرهة كان هو البادىء بطلب الدخول في مفاوضات مع عبد المطلب، ورأى عبد المطلب أن ينسحب لدعوة أبرهة، فقد تؤدي هذه المفاوضات إلى تجنب مكة شر القتال.

ولم يقف عبد المطلب موقفاً سلبياً من الهجوم الحبشي، فقد لجأ إلى وسيلتين لحماية أهل مكة، بعد أن رأى عدم جدوى الإلتجاء إلى السلاح. أولها وسيلة دفاعية قد تكون أكثر جدوى من الهجوم، فقد «أمر قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال»[1]. أما الوسيلة الثانية فهي إغراء أبرهة بالمال والذهب فقد عرض عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت: ولكن أبرهة رفض هذه العروض[2].

أسست قريش في مكة وحول الكعبة حكومة جمهورية صغيرة، ولما كانت قريش تعتمد في حياتها على التجارة فقد إنتهجت سياسة سلام وصداقة مع جميع الدول والقبائل، وعملت على حفظ التوازن بين سائر القوى العربية، وفضل المشاكل بالطرق السلمية.

جعل الأحباش الفيلة في مقدمة جيشهم، وكانت هذه الحيوانات تثير مخاوف العرب وتجعلهم يترددون في مواجهتها. والتاريخ يعيد نفسه، فقد

---

١ المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٨.

٢ الطبري جـ ٢ ص ١١١.

إستعان الفرس خلال الفتوحات الإسلامية لأراضي الدولة الفارسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بالفيلة، فقد أراد الفرس أن يحيلوا هزائمهم نصراً فيبثوا الرعب في قلوب الجند المسلمين، فجعلوا الفيلة في مقدمة جيوشهم، فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت، فقد غطى الفرس الفيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس. وتقدم قائد الجيش الإسلامي أبو عبيد بن مسعود الثقفي، فهجم عليه فيل أبيض، فوجه أبو عبيد إليه ضربة بسيفه تلقاها الفيل بقدمه، وما لبث الفيل أن أوقع أبا عبيد أرضاً وداسه بأقدامه. ثم نجح القائد عبدالله بن مراد الثقفي أن يقود المسلمين ويعبر بهم نهر الفرات فنجوا من الفيلة"[١]".

أراد عبد المطلب أن يضمن سلامة الكعبة بيت الله الحرام، وكان إشتباكه مع الأحباش في حرب يعرضها للتهدم وهو الغرض الذي قدم الأحباش من أجله. والتاريخ يروي كيف أدى قتال عبدالله بن الزبير للقائدين الأمويين الحصين ابن نمير في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، والحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، إلى تصدع أجزاء من الكعبة. وكان ابن الزبير قد لاذ بالكعبة وظن أن الأمويين سيحجمون عن قتاله عند الكعبة لحرمتها، وسمى نفسه "العائذ بالبيت"[٢]".

كما أن مكة وموقعها الجغرافي وطبيعتها لا تجعلها تصلح لتكون ساحة قتال فالجبال تحيط بها من معظم جهاتها، وتجعل الكر والفر عسيراً، كما كانت مكة فقيرة في موارد مياهها وإمداداتها وتموينها. مما يجعلها لا تحتمل حصاراً طويلا أو حرباً عامة.

---

١ الطبري جـ ٢ ص ٦٣١، انظر كتابنا "المختار الثقفي" ص ١٨.

٢ انظر كتابنا "عبد الله بن الزبير" سلسلة أعلام العرب.

علم عبد المطلب برحلة أبرهة من صنعاء باليمن إلى مكة، فقد نجح في إلحاقالهزيمة بذي نفر وبني خثعم في تهامة اليمن، وأثر زعيمهم نفيلبن حبيب الخثعمي، وإضطر ذو نفر ونفيل إلى طلب الرحمة والعفو من أبرهة. كما علم عبد المطلب بموقف عرب ثقيف بالطائف فقد إتخذوا موقفاً عدائياً وشجعوا أبرهة على غزو مكة وخرجوا يدلونه إلى الطريق. ولذا رأى عبد المطلب أن يستفيد من تجارب الآخرين.

وكان عبد المطلب والقرشيون واثقين من حدوث معجزة تدفع خطر الأحباش عن مكة وتنقذ الكعبة من هجوم أبرهة. وتجلى هذا واضحاً في قول عبد المطلب لأبرهة: «وأن للبيت رباً سيمنعه». وفي توجهه إلى الله تعالى بالدعاء قائلًا:

يا رب لا أرجو لهم سواكـــــــا يـا رب فـامنع منهم حمـاكـا

إن عدو البيت من عاداكـــــــا فامنعهم أن يخربوا قراكـــــــا

وكان عبد المطلب على حق في إنتظار هذه المعجزة، فقد مر القرشيون بتجارب مماثلة، وقد رأينا كيف حاول تبابعة اليمن الخلاص من الكعبة، إما بهدمها أو الإستحواذ عليها. ورأينا كيف حاول "تبع" هدم الكعبة، ولكن الله أنقذ بيته الحرام، فقد هبت عواصف ورياح على المعسكر التبعي، كفت أهل مكة شر القتال.

وقد أنشد عبد المطلب بعد إخفاق أبرهة أبياتاً من الشعر تحدث فيها عن حماية الله لبيته الحرام، وذكر ما حدث التبع الحميري اليمني، ثم لأبرهة الأشرم القائد الحبشي، فقال"[١]":

---

١ المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٩.

أيها الداعي لقد أسمعتـــــــــني ثم ما بي عن نداكم من صـــمم

إن للبيت لرباً مانعـــــــــــاً من يرده بأثام يصطلـــــــــــم

رامه تبع فيمن جنـــــــــــدت حـمـيـر والـحـي مـن آل قـدم

فانثنى عنه وفي أوداجـــــــــه جـارح أمســـك منـه بـالكظم

قلــت والأشـــرم تردي خيلـه إن ذا الأشرم غر بالحـــــــــرم

٩ – نذر عند الكعبة

نذر عبد المطلب:

خرج عبد المطلب ليحفر زمزم وليس معه سوى ابنه الحارث، وكان العمل شاقاً مؤلماً،تحمله الأب والابن، في صبر وقوة وإحتمال، حتى أتماه وبلغا به شرفاً ومجداً عظيماً. ثم كان نزاع قريش له فيما عثر عليه من ذخائر. وأدرك عبد المطلب أن قريشاً ما كانت لتنازعه غلا لضعفه لقلة أولاده، فرأى أن يعاود الزواج لينجب البنين فيكونوا عصباً له يعضدونه ويشدون أزره. ونذر عبد المطلب «لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرنا أحدهمالله عند الكعبة».

ومضت السنون، وتحققت أمنية عبد المطلب، وأصبح أولاده عشرة وأدرك عبد المطلب أنه آن أوان الوفاء بالنذر، ودعا أبناءه إليه وأخبرهم فأبدوا طاعتهم ورضوخهم. ولكن من منهم يكون الذبيح؟ وسأل أبناؤه: كيف نصنع؟ فقال عبدالمطلب: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني. ففعلوا، ثم أتوه، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة.

وكان عند هبل قداح سبعة، كل قدح منها فيه كتاب، فقدح فيه "العقل" أي الدية وقدح ثان فيه "نعم" للأمر أذا أرادوه، يضرب به في القداح، فإن خرج قدح "نعم" عملوا به. وقدح ثالث فيه "لا" اذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح، فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه "منكم"، وقدح فيه "ملصق"، وقدح فيه "من غيركم" وقدح فيه "المياه" إذا أرادوا أن يحفروا للماء

ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به، و كانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل، وأعطوا صاحب القداح مائة درهم وجزروا ليضرب لهم بالقداح.

قال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه.

ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبدالله، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل عبد الله إلى أساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها، فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداًحتى تعذر فيه: لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتي بإبنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا. وقال له المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة، وكان عبدالله ابن أخت القوم: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه. وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل، وإنطلق به إلى الحجاز فان به عرافة لها تابع، فسلها، ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك تذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا جميعاً حتى قدموا المدينة، فوجدوا العرافة"[1]" في خيبر فركبوا حتى جاءوها، فسألوها وقص عبد المطلب عليها خبره وخبر ابنه، وما أراد به، ونذره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله:

فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها، قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاء في الخير، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل.

---

١ تذكر بعض المصادر أن إسم العرافة "قطبه" بينما تذكر مصادر أخرى أن إسمها "سجاح".

وكانت الدية في ذلك الحين على ما جرى العرف به عشرة من الإبل فقالت العرافة: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشراً من الإبل ثم إضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها عنه، فقدرضي ربكم، ونجا ابنكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبدالله وعشراً من الإبل، وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ثلاثين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله، فأخذوا يزيدون الإبل عشراً عشراً، وفي كل مرة يقوم عبد المطلب يدعو الله، حتى بلغ عدد الإبل مائة، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل.

فقالت قريش ومن حضر من الناس: قد إنتهى رضا ربك يا عبدالطلب. فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله. فخرج القدح على الإبل.

فأعادوا الكرة مرتين، وفي كل مرة يخرج القدح على الإبل، فنحرت الإبل، نمم تركت ، لا يصد عنها إنسان ولا يمنع"[1].

وهكذا كتب الله الحياة لعبد الله بن عبد المطلب، ليكون والد الرسول العظيم محمد خاتم الأنبياء وكانت هذه هي أول مرة يفتدى بها عربي بمثل هذا العدد الكبير من الإبل، ولذا شاعت القصة بين العرب جميعاً، ترويها وترددها

---

١ سيرة ابن هشام ص ١٥١ – ١٥٥.

في مجالسهم ومجامعهم.

قصة زواج عبدالله بن عبد المطلب:

إطمأنت نفس عبد المطلب، فقد فدى ابنه الحبيب عبدالله بمائة من الإبلوكان عبد الله أحب أبناء عبدالمطلب إليه"[١]"، وإن لم يكن أصغرهم سناً، كما تروي الصادر. فابن هشام يذكر أنه «كان أصغر بني أبيه"[٢]"»، وربما يريد ابن هشام أن يذكر أن عبدالله كان أصغر أولاد أبيه حين أراد تحره والوفاء بالنذر، فالمعروف أن حمزة بن عبد المطلب كان أصغر من عبدالله، والعباس ابن عبد المطلب كان أصغر من حمزة. وقد روت المصادر أن العباس قال:أذكر أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها، فجيء بني حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبل أخاك، قبلأخاك، فقبلته. وفي هذا دليل على أن عبدالله لم يكن أصغر أولاد عبد المطلب"[٣]".

إنصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله، فمر به على امرأة من بني أسد بنعبدالعزى بن قصي بن كلاب، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى يقال لها أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي عند الكعبة،

فقالت له حين نظرت في وجهه: أين تذهب يا عبدالله؟ قال: مع أبي. قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك، وقع عليّ الآن. قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه، ولا فراقه"[٤]".

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب

---

١ المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ١٢٧.

٢ سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٤٣.

٣ الروض الأنف.

٤ سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٥٦ والطبري جـ٢ ص ٥.

ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو يومئذ سيّد بني زهرة،نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً"[1].

روى الطبري"[2]أن عبد الله دخل على زوجته آمنة حين ملكها مكانه فوقععليها فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت. فقال لها: ما لك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت عليّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب حتى أدرك فكان فيما طلب من ذلك أنه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل.

فتروي المصادر التاريخية أن كثيراً من الفتيات كانت تطمع في الزواج من عبدالله بن عبد الطلب فقد كان كما وصفه الطبري «أجمل رجال قريش»، ومن هؤلاء الفتيات فاطمة بنت مرة الخثعمية.

وفاة عبدالله بن عبد المطلب:

كانت قريش قبيلة تجارية، تعتمد في مواردها وحياتها على ما تدره رحلاتها

التجارية إلى كل مكان في العالم القديم وخاصة على رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام. ولذا كان الآباء يحرصون على تدريب أبنائهم على الخروج مع هذه القوافل منذ شبابهم الباكر.

فرح عبد المطلب إذ أنقذ ابنه عبدالله إذ إفتداه بمائة من الإبل، وتضاعف

---

١ سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٥٦.

٢ الطبري جـ٢ ص ٥.

سروره بعد زفاف عبد الله لآمنة بنت وهب. وأصبح عبدالله رب أسرة: وعليه أن يبدأ حياته العملية، ويشترك في نشاط قريش التجاري، ويخرج في قوافلها، ولذا أخذ يتهيأ للخروج في قافلة قريش، منضماً إلى إخوته من بني عبد المطلب، تاركاً آمنة في رعاية أبيه.

وكان عبدالله بعد زفافه قد أقام مع زوجته آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب، حيث تم الزواج في بيت العروس. فلما إنتقل وإياها إلى منازل بني عبد المطلب لم يقم معها طويلًا، إذ خرج في تجارة إلى الشام وتركهاحاملًا. وكان التمر يمثل معظم ما تحمله هذه القافلة من تجارة"[1]".

وكانت آمنة قبل زواجها في كنف عمها وهيب، فلما زفت إلى عبدالله أصبحت في كنف زوجها، حتى إذا سافر عبدالله، وأصبحت وحيدةمحزونة، أخذ عبد المطلب يتردد عليها لزيارتها، ويطلب من زوجته هالة أن تزور آمنة لتؤنسها في وحدتها وتخفف عنها آلام فراق زوجها.

ثم جاء أوان عودة القافلة، وبدأت قريش تستعد لإستقبالها وقد عادت بالخير العميم، وأخذت آمنة تترقب عودة زوجها، وخف شباب قريش يلقون القافلة قبل أن تبلغ الحرم، وخرج أخوة عبدالله فيمن خرج، ولكنهم عادوا وقد بدا الحزن والأسى على وجوههم، حتى إذا سألهم عبد المطلب عما حدث، أنبأوه بمرض عبد الله وتخلفه في يثرب ليمرض عند أخواله من بني النجار. وتألم عبد المطلب وخشي من أثر الصدمة على آمنة وحملها، فندب أكبر أبنائه الحارث ليرحل إلى يثرب في الحال ليباشر تمريض عبدالله. وقضى الجميع أياماً قلقة يتلهفون فيها على سماع نبأ عن مريضهم الحبيب، ولكن الحارث عاد

---

١ الطبري جـ٢ ص ٧.

إلى القوم ينعى لهم عبدالله. فقد رحل الحارث إلى يثرب وهناك علم أن عبد الله مات ودفن بها بعد شهر من رحيل القافلة إلى مكة.

وهكذا قضى عبدالله تحبه في نصف العقد الثالث، وهو في ريعان شبابه وميعة صباه، ولما يتمتع بشيء من مباهج الحياة سوى زفافه إلى عروسه وقضاء شهرين معها. ودفن عبدالله في بيت «تابعة» في حي بي عدي، بيثرب، ولا يزال ابنه محمد حملًا مستكناً. وكان لنعيه أسوأ الأثر في نفس عبد المطلب، وقلب آمنة ، ووضعا عزاءهما فيمن خلفه عبدالله جنيناً في بطن آمنة.

١٠ - بشرى بمولد الهدى عند الكعبة

مولد الهدى:

قضت آمنة فترة الحمل دامعة باكية، لا يعزيها سوى ترقّب رؤية المولود المنتظر . ولكن آمنة وإن كانت قد فقدت حنان الزوج، فقد وجدت عند حميها عبدالمطلب الرعاية والعناية، وإن كان المصاب واحداً، وخاصة أن عبدالمطلب قد تقدمت به السنون، فوهنت صحته، وضعف بصره.

ثم كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، في دار لابن عمه عقيل ابن أبي طالب، وقد توارثها أبناء عقيل حتى باعو هالحمد بن يوسف أخي الحجاج، فأدخلها في داره وسماها البيضاء. أما القابلة التي ولد محمد صلى الله عليه وسلم على يديها، فاسمها الشفاء، وقد قالت: «لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي». وحضنته أم أيمن فكانت مريته الأولى فأرضعته أمه آمنة بضعة أيام، ثم أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب، الذي أصبح بعد البعثة أبغض الناس إلى الله ورسوله.

بعثت آمنة إلى عبد المطلب تبشره بمولد حفيده، وكان عندما وصله النبأالسار يطوف بالكعبة فهرع إلى آمنة، فقالت آمنة له: «إنه قد ولد لك غلام، فأته فانظر إليه. فأتاه فنظر إليه وحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه، وما أمرت به أن تسميه، فيزعمون أن عبدالمطلب أخذه، فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه، أم خرج به إلىأمه، فدفعه إليها: والتمس

لرسول الله صلى لله عليه وسلم الرضعاء»"[1].

مرض المولود ثلاثة أيام ثم عوفي. وأعتق أبو لهب جاريته ثويبة حين بشرته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم. وكانت رضاعة محمد من ثويبة أياماً قليلة بلبن ابنها مسروح، وكانت ثويبة ظئراً محترفة أرضعت بضعة أطفال منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأبو سالمة بن عبد الأسد ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء اخوته في الرضاع، ولم يثبت أنها أسلمت سواء هي أو ابنها مسروح. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلها من المدينة، ولما فتح مكة سأل عنها وعن ابنها فعلم أنهما ماتا.

ينهي المؤرخون والنسابون نسب محمد إلى إسماعيل وإبراهيم ثم إلى نوح وآدم عليهم السلام. ولكن الرسول نهى عن أن يتجاوز النسب عن معد"[2].

إختلف المؤرخون في العام الذي ولد محمد صلى الله عليه وسلم فيه، فمعظمهم يذهب إلى أنه عام الفيل "٥٧٠ميلادية". ويذكر ابن عباس أن الرسول ولد في عام الفيل. ويقول آخرون أنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة، ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام وبأشهر، وبسنين يقدرها قوم ثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين.

وإختلف المؤرخون أيضاً في الشهر الذي ولد فيه الرسول، وإن كانت كثرتهم تذهب إلى أنه ولد في شهر ربيع الأول. وقيل: ولد في المحرم، وقيل: ولد في صفر والبعض يرجح شهر رجب، على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

---

١ ابن هشام جـ٢ ص ١٦٠.

٢ محمد بن عبدالله بن عبد الطلب بن هاشم بن مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد.

كذلك إختلف في تاريخ اليوم من الشهر الذي ولد الرسول فيه، فقيل:«ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وقيل لثمان ليال، وقيل لتسع».

ولكن معظم الأراء تتفق على أن الرسول الكريم قد ولد في ثاني عشر من شهر ربيع الأول.

وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه الرسول، أكان نهارًا أم ليلًا:

كما اختلف في مكان ولادته في مدينة مكة"[١]".

ذكر المؤرخ ابن هشام"[٢]" في سيرته: «ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل».

وقال الزبير : كان مولده في رمضان . وهذا القول موافق لقول من قال إن أمه حملت به في أيام التشريق. ويذكرون أن الفيل جاء مكة في المحرم وأنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يومًا"[٣]".

ويحدد المؤرخ المسعودي"[٤]" يوم مولد الرسول فيقول: «والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يومًا، وكان قدومهم مكة يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم في سنة ثمانمائة واثنين وثمانين من عهد ذي القرنين، وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشر خلت من المحرم وليست عشر ومائتين من تاريخ العرب، الذي أول حجة الغدر ولسنة أربعين من ملك كسرى أنو شروان، وكان مولده عليه الصلاة والسلام

---

(١) هيكل: حياة محمد ص ٧.

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ١٥٨.

(٣) انظر الروض الأنف والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ الطبري.

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٠.

لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة».

ويرى «كوسان دي بارسفال» أن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في اليوم الخامس والخمسين بعد هزيمة أبرهة الأشرم في موقعة الفيل. وقد حقق المرحوم «محمود الفلكي المصري» تاريخ مولد الرسول فقال إنه ولد في صباح اليوم التاسع من ربيع الأول من سنة ٥٧١ ميلادية ولا غرابة في الجمع بين الشهر العربي والسنة المسيحية، لأن التاريخ الهجري لم يبدأ به إلا بعد ذلك. ولكن الأشهر العربية كانت معروفة . والثابت أيضًا أن أمه حملت به في الربيع ووضعته في الخريف، وقد دلت البحوث الحديثة أن الخريف فصل مواليد النوابغ"[١]".

تحدث قيس بن مخزومة عن مولد الرسول الكريم فقال: «ولدت أناورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل، فنحن لدان». كما تحدث حسان ابن ثابت شاعر الرسول، عن ذكرياته يوم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: «والله إني لغلام يفع، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على أطمة يثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك، مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به»"[٢]".

لا يعرف في العرب من تسمى باسم «محمد» قبل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة، طمع أباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز، أن يكون ولدًا لهم. وهم محمد بن سفيان بن مجاشع، جد الفرزدق الشاعر، والأخر: محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش، والأخر محمد بن حمران بن ربيعة. وكان أباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا

---

(١)ثورة الإسلام ص ٢٨١.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٥٩.

على بعض الملوك، وكان عندهم علم من الكتاب الأول. فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملًا، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمدًا ففعلوا ذلك.

وفي سابع يوم لمولد الرسول الكريم، أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ودعارجالًا من قريش، فحضروا وطعموا. فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمدًاسألوه لم رغب عن أسماء أبائه؟ فقال: أردت أن يكون محمودًا في السماء لله والأرض لخلقه.

روت المصادر القديمة كثيرًا من الروايات، ولا نرى بأسًا من سرد بعضها، فتذكر هذه الروايات أن أمنة لم تتحمل أي مشقة في حمل الرسول أو ولادته، وقد انبعثت ليلة مولد الرسول أنوار عظيمة أضاءت السماء، وارتجت السماء والأرض، لمولده. وغاضت مياه بحيرة ساوى وجفت جوانبها، بينما فاضت مياه دجلة فأغرقت الأراضي المحيطة بها. واهتز عرش كسرى وسقط كثير من أبراجه. وفي تلك الليلة رأى قاضي فارس «أو الموبذان خادم النار الكبير عند الفرس في رواية أخرى» في حلمه أن فرسًا عربية قد صرعت جملًا شرسًا، وقص حلمه في الصباح على كاهن فارس، ففسره بأن بلاد الفرس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب.

وفي تلك الليلة الخالدة، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التي ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض، وطاردت الملائكة الشياطين الذين يسكنون النجوم، وأرغموهم هم وزعيمهم إبليس على أن يسكنوا قاع البحر"[1].

(1)انظر كتاب حياة محمد لارفنج من توجستنا ص ٣٢.

وقيل أيضًا أن محمدًا ولد عند وجود المشتري، وهو دليل السعد والمجد، وأن سنة ولادته كانت سنة الفتح والخير، لأن قريشًا كانت قبل ذلك في جدب وضيق، فاخضرت الأرض وأثمرت الأشجار وعم الخير العميم أرجاء مكة.

١١-الحج إلى الكعبة قبل الإسلام

الحج في الأشهر الحرم:

كان العرب قبل الإسلام يحجون إلى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة العربية وشاركهم في الحج أمم أخرى كالهنود والفرس والصابئة وبعض اليهود. وكانت أشهر الحج عندهم حرمًا، وكانوا يحرمون الشهر الذي يكون فيه الحج، وهو ذو الحجة والذي قبله والذي بعده. وكانوا يحرمون شهر رجب أيضًا، ويسمونه شهر الله الأصم، أي الذي لا يسمع فيه قعقعة السلاح. فكانوا فيهذه الشهور الأربعة يلقون السلاح ولا يغزو بعضهم بعضًا"[١]".

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج، مع أن موسمه وأسواقه لا تستغرق إلا شهرًا وأيامًا واضحة، فالمسافات الشاسعة التي يضطر الحاج إلى قطعها من الأنحاء القاصية تحتاج إلى مدة كافية للإياب والذهاب، ولعل في هذا دليلًا على اشتراك العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية وأطرافها في الحج وشهودهم موسمه وأسواقه وعدم اقتصار ذلك على عرب الحجاز.

لم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون إلى أسواقه مقصورين على منطقة مكة أو بلاد الحجاز، أو على الوثنيين من العرب، بل قدم كثير من عرب الأرجاء النائية، كعرب اليمن ونجد ومشارف الشام،

كما كان منهم الموحدون الحنفاء، أو الصابئة؛ والنصارى واليهود. منهم من كان يأتي لأداء مناسك الحج، ومنهم من كان يجمع بين الحج والتجارة،

---

(١) تذكر بعض الروايات أن الأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ويذهب بعض المفسرين أن أشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة، ونحن نميل إلى تأييد الرأي الأول.

ومنهم من كان يأتي للتبشير بدينه، أو يأتي للمفاخرة والخطابة وإنشاد القصائد، أو لحل مشاكل لا يمكن حلها إلا في ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه.

وفي العصر الجاهلي، ساد نظام «الحمس»، ولفظ الحمس جمع مفرده الأحمس، ومعناه ابن البلد، وابن الحرم، والوطني المقيم، والذي ينتمي إلى الكعبة والمقام. فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها، أشبه الأشياء بحق «حرية المدينة» الذي يمنح في بلاد العرب للأضياف الشرفاء، تمييزًا لهم واعترافًا بمكانتهم، كما أنه إظهار لشرف الانتساب إلى البلد الذي يمنح أهلوه ذلك اللقب. فقال المكيون المتميزون: «ليس لأحد من العرب حق كحقنا ولا منزلة كمنزلتنا».

وعلامة الأحمس أن لا يعظم شيئًا من الحل «أي الأرض التي وراء الحرم» كما يعظم الحرم، فإذا فعل ذلك استخفت العرب بحرمته، فترك الحمس الوقوف على عرفة، لأنه خارج عن الحرم والإفاضة منها، مع إقرارهم بأنها من مناسك الحج وبرون لسائر العرب أن يقفوا على عرفة وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا: «نحن أهل الحرم فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرنا».

تحدث ياقوت الحموي"[1]" عن مذهب الحمس فقال: «كان من سنة الحمس ألا يخرجوا أيام الموسم إلى عرفات، إنما يقفون بالمزدلفة، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ولا يربطون عنزًا ولا بقرة، ولا يغزلون صوفًا ولا وبرًا، ولا يدخلون بيتًا من الشعر والمدر، وإنما يكتفون بالقباب الحمر في الأشهر الحرم».

فأظهروا بذلك شدة تعصبهم لبقعة من الأرض، وترفعوا عن أن يخرجوا منها ولو كان في خروجهم إتمام لمشاعر الحج. وفي القوانين الدولية الخاصة

---

(١) معجم البلدان «طبعة وستنفلد» جـ ٤ ص ٦٢٠.

الحديثة من يكسب حق الوطنية بالدم، ومن يكسبه بالميلاد في أرض الوطن، ومنهم من يناله بطول الإقامة. ففكرة الحمس اقرار لحق الوطنية بالانتساب للبقعة، وامتياز لمن له هذا الحق.

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترى إلى إعزاز جانب أهل الحرم، وتضمن سلامة القاصدين إليها وتحجز ما بين الأعداء، وتشل أيدي المنتقمين والمتربصين فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس"[1].

لم تكن الكعبة محرمة أو مقدسة في نظر قبيلة قريش فحسب، بل في نظر جميع القبائل العربية، وتجلت تلك القداسة في كل عام في سلسلة الاحتفالات والأعياد والأسواق التي كانت تقام حول مكة في بطحائها وظواهرها، وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر والرسوم والتجارة والمساومة والبيع والشراء وكان للأدب عند العرب نصيبه من الاهتمام، فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء في تلك الأسواق التي كانت فيها أركان ومواقف أشبه بمجامع العلم والأدب في عصورنا الحديثة.

وأراد المكيون أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق في فصل الشتاء وطرف من الربيع، وأخر من الخريف، فوضعوا نظام النسء. ليجعلوا من السنة القمرية والتاريخ الهلالي سنة شمسية، ويحتفظوا بحلول الموسم في الوقت الذي يرغبونه. ولم يختر المكيون هذا الوقت من العام عبثًا، ولم يفضلوه على غيره لطيب هوائه أو خفة حرارة القيظ على الوافدين، إنما اختاروه لأنه الوقت الذي يكون فيه الأدم والثمرات وغيرها من الإنتاج الزراعي والبضائع معدة للعرض في الأسواق، مما يحقق الفائدة المادية لبدو الجزيرة العربية الذين يعتمدون على

(١) ثورة الإسلام ص ٨٢.

التجارة في إنتاجهم الاقتصادي في مواردهم وحياتهم.

اهتمام قريش بالحج:

تطورت مدينة مكة وأصبحت مدينة كبرى، وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن، ونالت المنزلة الكبرى لوجود الكعبة بها، ولازدهار تجارتها ولموقعها الجغرافي، ويضيف المؤرخ الألماني «ولهاوزن» عاملًا أخر، هو تفوق سكان مكة من قريش، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين والشماليين. فالمقطوع به أن التجارة التي امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت مؤثرات ومطامح جديدة"[1].

وسعت قريش إلى تحقيق السلام في مكة، بل في أرجاء بلاد الحجاز، لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل في أمان واطمئنان، وابتعدت قريش عن الحروب القبلية، ونجحت في السيطرة على سائر القبائل العربية. وارتبطت قريش بالدول المعاصرة بكثير من الصلات الاقتصادية والسياسية، واقتبسوا منها ألوانًا مختلفة من الحضارة والثقافة، وتأثروا بنظمها السياسية والاجتماعية.

اهتمت قريش بشؤون مكة لتسهيل الحج، فنظمت الخدمات البلدية، وتوفير المياه للحجاج، وتمهيد طرق مكة ونظافتها، ووقاية مدينة مكة من السيول التي كثيرًا ما يشهدها المكيون ويعانون منها، كما اهتمت قريش بإضاءة طرقات مكة، وإقامة النيران فوق الجبال العالية المحيطة بمكة لإرشاد قوافل الحجاج والتجار.

في الأشهر الحرم، يتوقف القتال، ويشد العرب رحالهم من كل مكانإلى

---

(١) هل: الحضارة العربية ص ١٧.

مكة، وينزلون عند مشارفها وقرب الأبار الكثيرة المحيطة بها. حيث يقضون أيامًا يبيعون ويشترون. ويتعارفون ويتسامرون، ثم يقصدون سوق عكاظ التي أصبحت ميدانًا للمباراة في الشعر والخطابة، ومحكمة يفصل وجوه العرب في الخصومات، وسوقًا عالمية تعج بأنواع السلع المختلفة المجلوبة من دول العالم القديم. حتى إذا فرغ الناس من سوق عكاظ، وقفوا في عرفة، ثم قدموا إلى مكة، فأدوا شعائر الحج، ثم يعودون إلى بلادهم.

وأثر الحج في الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية، فقد كانت القبائل تختلط وتمتزج في سلام، وتتناسى العداء والخصام، فيلتقون ويتعارفون، ويبيعون ويشترون، ويتزاوجون، ويتناشدون الأشعار، ويحلون مشاكلهم، مما يخفف من حدة العصبية القبلية ويوجد مظهرًا لحياة اجتماعية راقية متماسكة.

السدانة والسقاية والرفادة:

أدرك وجوه قريش خاصة، وأهل مكة عامة، ما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج. فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والاختيار على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه. كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامته وقدسيته. ولذا تضامنوا في القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام باعتبارهم ضيوف بيت الله الذي في بلدهم، والذين هم سدنته.

وكانت المناصب في قبيلة قريش خمسة عشر منصبًا، قسمتها قريش بين بطونها المختلفة، لتحفظ التوازن بينها، وتمنع تنافرها أو تنازعها، ولتحفظ القريش وحدتها وتماسكها، ولتوفر لمكة الهدوء والسلام اللازمين، لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل في كل عام إلى مكة. وكانت أشرف هذه المناصب السدانة والسقاية والرفادة.

أما السدانة أو الحجابة، فصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها، يفتح بابها للناس ويغلقه، ومنصب السدانة أبرز المناصب على الإطلاق، والمنصب الثاني هو السقاية، ويتولى مناصبها توفير المياه للحجاج، ولم تكن هذه المهمة يسيرة، لقلة المياه في مكة، فكان من يتولى المنصب ينشئ حياضًا من الجلد، يضعها في فناء الكعبة، وينقل إليها المياه العذبة من الأبار على الإبل في المزايد والقرب. وكانت السقاية في بني هاشم بن عبد مناف . أما المنصب الثالث فهو الرفادة، فكانت قريش تجمع من وجوهها بعض الأموال في موسم الحج ليقوم صاحب المنصب بإعداد الطعام لفقراء الحجاج، باعتبارهم ضيوف الكعبة. وكان أول من قام بالرفادة قصي بن كلاب، وأصبحت في بني نوفل، ثم في بني هاشم. ومن المناصب الكبرى التي تتعلق بالكعبة والحج منصب «العمارة» ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجو ولا رفث ولا يرفع فيه صوته"[١]". وعملت قريش على تشجيع الحجاج، فبذلت كل جهد لإنصاف المظلوم، ونشر العدل، وعقدت من أجل ذلك «حلف الفضول» «فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه"[٢]"حتى ترد عليه مظلمته».

استن قصي بن كلاب، مؤسس قريش، سنة الرفادة، وتوارثها أبناؤه من بعده، فأصبحت سنة تقليدية متوارثة، وقد عرف ابن هشام"[٣]" الرفادة فقال: «وكانت الرفادة خرجًا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها، إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعامًا للحجاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ١ ص ٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤١.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٣٠.

أن قصيًا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فأجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج، حتى يصدروا عنكم. ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام أموالهم خرجًا، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعامًا للناس أيام منى».

تولى قصي بن كلاب الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء وبنت قريش بأمر قصي حول الكعبة دورها، وتركوا مكانًا كافيًا للطواف بالبيت، وتركوا بين كل بيتين منفذًا ينفذ منه إلى المطاف.

أنجب قصي ثلاثة أولاد هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى. وكان عبد الدار أكبرهم سنًا، ولكن عبد مناف كان أكثر شهرة وأرفع شأنًا، فكسب احترام قومه وعظمت مهابته بينهم، ورأى قصي أن يعوض عبد الدار عما افتقده، فأسند إليه بعض المناصب ليعتز بها على أخيه، فقال قصي لعبد الدار: «أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهم الموسم طعامًا إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك».

وبعد وفاة قصي، تولى عبد الدار هذه المهام، وورثها أبناءه عنه، ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصي، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار، وأدى هذا التنافس إلى انقسام قريش، وكادوا يقتتلون، ثم جنحوا إلى السلم، واتفقوا على أن يتولى بنو عبد مناف بن قصي السقاية والرفادة؛ وأن تكون الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة لبني عبد الدار بن قصي.

تولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة. وحدث أن مرت فترة جدب وقحط بمكة، وعانت منها قريش، فرحل هاشم إلى فلسطين حيث اشترى كمية كبيرة من الدقيق، فقدم به إلى مكة، حيث صنع منه خبزًا، ثم قام بذبح الذبائح، وصار يهشم الخبز لقومه فأطلقوا عليه اسم «هاشم»، بدلًا من اسمه الأصلي «عمرو» وارتفع شأن هاشم في أرجاء الجزيرة العربية.

وتولى المطلب السقاية والرفادة بعد أخيه هاشم. حتى إذا شب عبد المطلب ابن هاشم، نازع عمه في مناصبه، واستعان بأخواله من بني النجار في يثرب، ونجح في استرداد مناصب أبيه. ووصف ابن هشام"[1]"، ما حازه عبد المطلب من مجد وسؤدد فقال: «ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان أباؤه يقيمون من قبله لقومهم من أمرهم وشرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من أبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم».

تولى عبد المطلب منصبي السقاية والرفادة، ولقي مشقة كبيرة في توفير المياه اللازمة للحجاج والوافدين على مكة، وخاصة أن مكة مرت بفترة ندرت فيها الأمطار وكادت تجف مياه الأبار، في حين أشرف موسم الحج، ثم كانت الرؤيا التي دلت عبد المطلب على مكان بئر زمزم التي عفت عليها الأيام وخرج عبد المطلب وابنه الحارث –ونجحا في كشف مكانها وإعادة حفرها وتدفق الماء من جديد من هذه البئر المقدسة. تروي الزرع والثمار . وتضمن توافر الماء للحجاج وأهل مكة.

وجد عبد المطلب في بئر زمزم نفائس وذخائر، كانت لمضاض الجرهمي

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢.

وقد أخفاها في البئر وردم عليها عند اضطراره للجلاء عن مكة، وحتى لا يعثر أعداؤه عليها، وكان قد عجز عن حملها معه إلى منفاه، وتراكمت الرمال عبر السنين فأخفت هذه النفائس عن العيون والأيدي. ونازع القرشيون عبد المطلب فيما وجد وطالبوه بأن يشاركوه في هذه الذخائر، ولجأ إلى القداح لحسم النزاع.

كان في مقدمة هذه النفائس غزالان من الذهب وأسياف وأدرع، وانتهت عملية ضرب القداح إلى أن أصبح الغزالان من نصيب الكعبة. والأسياف والأدرع من نصيب عبد المطلب، فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين الذهبيين، ولكن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه، فتسللوا في جنح الظلام إلى الكعبة وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية.

أصبح عبد المطلب بعد اكتشاف بئر زمزم، ينقل الماء منها إلى الحياض المحيطة بالكعبة، ويحلي الماء بالتمر والزبيب، وكان ابنه العباس يملك بساتين عتاب في الطائف وهي مدينة على مقربة من مكة، فكان يمد والده بحاجته من الزبيب.

هدي الكعبة:

الهدي هو الحيوان الذي يسوقه الحاج ليذبحه بعد أداء مناسكه قربان شكر لله، وإذا كان الحيوان من البقر والإبل سمي بدنًا. وكلمة الهدي مشتقة من الأهداء على اعتبار أن القربان هدية من الحجاج إلى الله أو إلى الكعبة. وجرت عادة العرب في العصر الجاهلي على ذبح هديهم عند الأوثان والأنصاب في فناء الكعبة، ويتركونها بعد الذبح. وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيها البشر في بعض أدوارهم وأطوارهم ومختلف بيئاتهم. غير أن الروايات ذكرت أن العرب الجاهليين كانوا يرجعون تقليدهم في ذبح القرابين

إلى إبراهيم الذي امتحن بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم. ويرجع البعض أن العرب كانوا يعرفون أخبار هذه الأحداث ويتناقلونها ويرجعون إليها يعللون بها ذبح الضحايا، كما كانوا يرجعون قيامهم بالحج إلى دعوة إبراهيم الناس ليحجوا، وكانوا يدرجون عملة إبراهيم بالكعبة ومقامه في فنائها.

وكانت العرب قبل الإسلام تعتبر العمرة إلى مكة واجبًا مقدسًا. فكانت تقدم الذبائح لبعض الأصنام في وادي عرفة على مسافة بضعة أميال من الشمال

الشرقي لمكة، وفي المزدلفة على مسيرة ساعتين من عرفه. وفي مني بعد مسيرة ساعتين أخريين عن المكان السابق. ثم غدت عبادة هذه الأصنام والحج إليها، هي العبادة السائدة في بلاد العرب فقامت آلاف عديدة من العرب بالحج والعمرة في الأشهر الحرم، مما جعل الحجاز أيام الجاهلية مركز حياة العرب الدينية"[1]".

وأصبحت تقاليد تقديم الهدي تعين صاحب منصب الرفادة، في القيام بمهمته فقد كان فقراء الحجاج يأكلون من لحوم الهدي، ولذا كان العرب يحترمون الحيوانات التي تهدي إلى الكعبة، فكانت تترك سائمة فلا يتعرض لها أحد. واعتاد الحجاج العرب تقليد الهدي، أي وضع قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر في عنقه إعلانًا بأنه هدي، فيصبح محرمًا مقدسًا. واعتاد الحجاج في العصر الجاهلي أن يلطخون جدران الكعبة بدماء الهدي، ظنًا منهم أن في هذا تقربًا إلى الله والكعبة. وكانوا لا يأكلون لحوم هديهم، ويتبرعون بها للحجاج الفقراء.

---

(١)هل: الحضارة العربية ص ١٦.

١٢-الكعبة قبيل الإسلام

ضعف الوثنية العربية:

فقدت الوثنية العربية قبيل ظهور الإسلام، معناها الأول، وقوتها السالفة ودب فيها الفساد، وتغير جوهرها وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام. ولكن، وبرغم ذلك، احتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية، فقد كانت مجذب آلاف الحجاج فيتحملون مشقات السفر من أجل الحج ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى،وتصبح ملكة مركزًا تجاريًا عظيمًا. ويتنافس الحجاج في تقديم القرابين. وهذه الضحايا تباع وتشترى في قريش، ويتوزعها فقراء مكة وقريش. ولذا أصبحت الوثنية بالنسبة لهم مسألة اقتصادية مادية.

تحدث المؤرخ الهندي المسلم «خودا بخش» في كتابه الذي قمنا بترجمتهبعنوان «الحضارة الإسلامية»"[١]" عن ضعف الوثنية في أواخر عصر الجاهلية فقال: كان العرب يقدسون ألهتهم، فيحجون الى أماكنها المقدسة، ويقدمون الأضحيات في معابدها. ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها في وقت الشدة، ويسألونهم عما يخبئه المستقبل. ولكن كان هذا كله تظاهرًاوتصنعًا. فلم يكن هناك شعور بإيمان حقيقي، ولكن كان العربي يبدي غضبه، لأقل شيء على الألهة،ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم، فيسخر منهم.

وهذه الحقائق – كما يقول خودابخش – توضح أن عرب ما قبل الإسلام

---

(١)خود ابخش: الحضارة الإسلامية ص ٢٩.

كانوا في حالة قلق ديني قبل ظهور الإسلام، فقد كانوا غير راضين عن نظامهم الديني وعاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضي حاجاتهمومطالبهم، وكانوا في اختلافات دينية كانوا يمارسون عبادة الأوثان، ولكن بدون شعور بإيمانحقيقي.

كان العرب في ظاهر أمرهم يمجدون هذه الأرباب، ويحجون إلى محرابها ويحتفلون بمواسمها السنوية،ويذبحونالقرابينفي هياكلها، ويريقون دماءها على تلك الألهة التي يعبدونها، سواء كانت من الحجر أم من الخشب، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما حزمهم أمر يلتمسون منها البركة. ويتكشفون بواسطتها مستقبل أمرهم الغامض . ولكن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر، أما فيما عدا ذلك، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم ألهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها.

دعوة الى تخليص الكعبة من الأوثان:

قبيل ظهور الإسلام، أبدى بعض وجوه العرب، من الشخصيات المستنيرةسخطهم على الوثنية وأملوا في دين أسمى من أديان وطنهم. فروى ابن هشام"[1]":«اجتمعت قريش يومًا في عيد لها عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض،قالوا: أجل... فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين ابراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لأنفسكم دينًا، فإنكم والله ما أنتم على شيء

(1)سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم».

نقرأ في المصادر القديمة عن أبي أنس قيس بن صرماح، وقد نادى بنبذ الأوثان كما نقرأ أيضًا عن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن مدهون الذين نهيا عن شرب الخمر زمن الجاهلية.

استعرض المسعودي أديان العرب في العصر الجاهلي فقال:«كانت العرب في جاهليتها فرقًا: منهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقنًا بأن الله يثبت المطيع، ويعاتب العاصي، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على أياته في الفترة، كقس بن ساعدة الأيادي ورثاب الشني، وبحير الراهب،وكان من عبدالقيس.

«وكانمنالعربمنأقربالخالق،وأثبتحدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم:«ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»الأية. وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البدن، ونسكوا لها النسائكوأحلوا لها وحرموا.

«منهم من أقر بالخالق، وكذب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر وهؤلاء الذين حكى الله إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى:«وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» فرد الله عليهم بقوله:«وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون».

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته. وقد اشتهر صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله

تعالى:«ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون»وقوله تعالى:«افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى».

أفرد ابن قتيبة فصلًا في كتابه «المعارف»"[1] جعل عنوانه «قصة من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم» فذكر عدة أسماء ومن هذه الأسماء زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وكان زيد قد رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين فقتله النصارى بالشام، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم إنه يبعث أمة واحدة. ومنهم أيضًاأمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبيًا يبعث قد أظل زمانه.ومنهم أيضًاأسعد أبو كرب الحميري ويذكر ابن قتيبة أنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال:

شـــهـدت عـلـى أحـمـد أنـه رسول من الله باري النســـــم
فـلـو مـد عـمري إلى عصـــره لـكـنـت وزيـرًا لـه وابـن عـم
وألزم طـاعتـه كـل من عـلـى الأرض مـن عـرب أو عـجـم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الأيادي وهو حكيم العرب، وذكر الرسول أنه رآه يخطب في سوق عكاظ وهو على جمل أحمر. ومنهم أيضًا أبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ودخل بيتًا له فأتخذه مسجدًا وقال: أعبد رب إبراهيم فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أسلم وحسن إسلامه.

وأخر من عددهم ابن قتيبة هو خالد بن سنان بن غيث وهو من بني عبس ابن بغيض، وروي أن رسول الله قال: ذلك نبي أضاعه قومه. ويروي ابن قتيبة

---

(١)ابن قتيبة: المعارف ص ٢٧ – ٢٩.

أن ابنته قدمت على الرسول فسمعته يقرأ: قل هو الله أحد. فقالت: كان أبي يقول ذا.

ويذكر المؤرخ الألماني «جوزيف هل»"[1]" أن أناسًا في بلاد العرب ولاسيما في مكة كانوا ساخطين على الديانة القائمة بينهم، وتلمسوا الهداية في المسيحية واليهودية أو انتقوا نوعًا من العبادة كان جديدًا وتقدميًا في نفس الوقت. ويصف المؤرخ «ويتلف نيلسن» في مقال له بعنوان «الديانة العربية القديمة»"[2]" الأصنام قبيل ظهور الإسلام بأنها «آلهة عهد الاضمحلال والتدهور الذي سبق الاسلام».

الكعبة مركز الدعوة الحنيفية:

قبيل ظهور الإسلام ظهرت حركة إصلاحيةتهدف إلى العودة إلى دين ابراهيمالحنيف وتخليص الكعبة من الأوثان وإصلاح أحوال العرب. فقد ظهرت مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى الحنيفية. فقد كان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ودعوا إلى دين التوحيد وإلى إحياء ملة ابراهيم ونبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية. وكانوا يعتقدون في البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازي الناس على أعمالهم من خير أو شر ويطلق على هذه النزعة التحنف، وعلى أصحابها الحنفاء.

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة آل عمران"[3]": «ما كانابراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا. ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من

---

(١) هل: الحضارة العربية ص ١٩.

(٢)التاريخ العربي القديم.

(٣)آية ١٧٧.

المشركين»وقال الله تعالى في هذه السورة أيضًا"[1]":«قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفًاوما كان من المشركين».

كان كعب بن لؤي بن غالب أحد أجداد الرسول من الحنفاء فكان يجمع قريشًا ويطلب منهم التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ويبشرهم بظهور نبي.

والحنفاء هم من احتفظوا بدين ابراهيم من الجاهليين فلم يشركوا بربهم أحدًا ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية، كما نبذوا الوثنية. وقد كان العرب جميعًا قبل عهود الوثنية في عهد عمرو بن لحي الخزاعي يدينون بدين التوحيد الذي بشر به ابراهيم.

عد بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصارى واستدلوا على ذلك بما ورد في بعض المصادر القديمة من اعتناق بعض من نبذوا الوثنية الدين المسيحي مثل ورقة بن نوفل، غير أن القرآن الكريم قد نص نصًا صريحًا على أن الحنفاء لم يكونوا هودًا ولا نصارى وأنهم يعتنقون دين ابراهيم ولم يكن ابراهيميهوديًا ولم يكن نصرانيًا، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة حنيفًا مسلمًا يؤمن بالتوحيد.

لم ينتظم الحنفاء في طائفة ولم يرتبطوا برباط واحد ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة، ولكننا نعتقد أن هؤلاء الحنفاء أو المتعبدين على ملة ابراهيم لم يكونوا عددًا قليلًا فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن الكريم فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل. وقد ذكرت لنا

---

(1)آية ٦٧.

كثير من المصادر القديمة أسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء"[1]".

كما أن ظهور الحنفاء المستنيرين في غير مكان واحد وفي غير وقت واحد يدل على ظهور فكرة جديدة مستنيرة دارت في أذهان المفكرين المستنيرين من العرب قبيل ظهورالإسلام وهي فكرة نبذ عبادة الأوثان والتخلص من العادات السيئة الجاهلية والرقي بالعقيدة والسمو بالإنسانية وهي حلقة في سلسلة التطور الديني والفكري في تاريخ العرب.

نظر هؤلاء الحنفاء إلى الحياة نظرة أكثر سموًا، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التي كانت قد تشابكت مع حياة العرب. ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربي من أساسه وهذا ما نجح الإسلام فيما بعد في تحقيقه إذ خلق مجتمعًاإسلاميًا نقيًا متماسكًا.

كافح الحنفاء من أجل القضاء على الوثنية ورذائل الجاهلية، ولكن جهودهم لم تنجح في التخلص من الماضي والقضاء على التقاليد المتوارثة عن الأباء والأجداد وكانت حركة الحنيفية تفتقر إلى سند دنيوي بظاهرها وترتكز عليه"[2]".

كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي يؤمن أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية كبرى فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء وابتعد الناس عن الطريق القويم، كمارأى أن تعود الكعبة إلى ما كانت عليه زمان جده ابراهيم. وكانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائمًا وأثرت في أعماله وأفعاله.

---

(1)دروزة: عصر النبي ص ٤٣٢.

٢ خراد بخش: الحضارة الإسلامية ص ٣٣.

فقد كان كثيرًا ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه في جبل حراء على بعد ثلاثة فراسخ من مكة حيث يقضي عدة أيام في الصلاة والتعبد، وكان يمضي شهر رمضان في الغار، وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح.

وقد إعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمنًا في كل عام يقضونه بعيدًاعن الناس في خلوة يتقربون إلى الله بالزهد والدعاء. ويلتمسون عنده الخير والحكمة. وكانوا يسمون هذا الإنقطاع التحنف أو التحنث.

وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الإسلام من الحنفاء حتى إذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي وأصبح رسول الله. وكان محمد في غار حراء يعبد الله وحده فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه إختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الأمين.

وإن كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام فإنها قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير، ونجد آثار ذلك واضحة في ظهور عقيدة توحيد الله، ويقظة الضمير، والشعور بالمسؤولية، وصحب ذلك ظهور عقيدة توحيد الله، ويقظة الضمير بعض المشاعر الإنسانية صورها الشعراء في القرن السادس الميلادي في شعرهم.

١٣- الرسول والكعبة

تصدع الكعبة:

حينما كان الرسول في الخامسة والثلاثين من عمره"[١]" إشترك حادث جليل أثار إهتمام جميع العرب في أرجاء الجزيرة العربية وهو إعادة بناء الكعبة.

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة في أمر الكعبة فقد كانت بدون سقف منخفضة الإرتفاع مما جعلها نهباً للصوص الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التي كان القرشيون يحتفلون بها في جوفها.

كان إرتفاع الكعبة تسع أذرع أي نحواً من سبعة أمتار ولم يكن لها سقف وكان بابها بمستوى الأرض فيدخلها من شاء ويلقي فيها الناذرون نذورهم من حلى ومتاع وطيب ونقود فتقع في خزانة الكعبة التي كانت بمثابة صندوق للنذور وهي بئر عند بابها على يمين الداخل.

تعرضت مكة لعدة سيول في أوقات متفاوتة وحدث أن نزل سيل جارفمن الجبال المحيطة بمكة فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها وأصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على إصلاح ما أفسدته السيول وكانت من قبل تجد حرجاً في إعادة بنائها أو إدخال إصلاحات عليها، وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم بإصلاح الكعبة فقد رمى البحر بسفينة إلى جدة كانت لأحد تجار الروم. وكانت هذه السفينة قد بعث بها ملك الروم إلى الحبشة من مصر ليقوم ركابها ببناء

---

١ ابن هشام جـ١ ص ٢٠٤ وذكر العمري «مسالك الإبصار» جـ١ ص ٦٤ أن عمر الرسول كان ٢٥سنة أو ٣٥سنة.

كنيسة هناك"[1]" وخرج وفد قرشي برياسة الوليد بن المغيرة إلى جدة لشراء هذه السفينة.

وكان في مكة رجل نجار مسيحي يدعى ياقوم «أو باقول في بعض الروايات» ورأت قريش أن تستعين بخبرته. ويروي ابن هشام"[2]"إنه «كانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل سنة فتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزورأت وكشت وفتحت فاها، وكانوا يهابونها قبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة، كما كانت تصنع بعث الله إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش: «إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل دقيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية».

بدأت قريش عملية الهدم والبناء، وكان أول من بدأ الهدم عائذ بن مروان بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرًا فوثب بين يديه حتى رجع إلى موضعه –كما يروي ابن هشام"[3]" –فقال عائذ: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة على أن يتولى كل فريق الهدم والبناء. ولكنهم ترددوا في الإقدام على الهدم خشية أن يلحقهم الأذى، فقال الوليد بن المغيرة: أنا ابدؤكم في هدمها. ثم أخذ المعول وبدأ الهدم وهو يقول: اللهم أنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين. وانتظر الناس ليلة وقالوا ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد

---

(1)المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٨.

(2)سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٥.

(3)سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦.

رضي الله صنعنا فهدمنا.

عاود القرشيون الهدم في اليوم التالي وانتهى الهدم بهم إلى الأساس، أي أساس إبراهيم عليه السلام وهي أحجار خضراء فضربوا عليها بالمعامل فارتدت عنها فرأوا أن يتخذوا هذه الأحجار أساسًا للبناء الجديد.

ويروي ابن هشام"[1]" إن قريشًا وجدت في الركنين كتابًا بالسريانية فلم يدروا ما هو مكتوب فيه وعهدوا بذلك إلى رجل يهدي فكان المكتوب: «إنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أفلاح حنفاء لا تزول حتى يزول أخشبانها"[2]" مبارك لأهلها في الماء واللبن».

الرسول واعادة بناء الكعبة:

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد فرأوا تعليتها وكان بابها لاصقًا بالأرض منذ عهد إبراهيم، فقال أبو حذيفة بن المغيرة: يا قوم ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالًا لمن يراه"[3]".

جمعت بطون قريش أحجارًا من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكةوبدأت البناء حتى بلغ البناء موضع الركن أي الحجر الأسود وأصبح ارتفاع البناء حينئذ إلى قامة الرجل وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه في الجانب الشرقي، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٨.

(٢)الأخشبان: جبلان في مكة.

(٣)العمري: مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤.

مكانه واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدي بن كعب على الموت وأعدوا جفنة مملوءة دمًا وأدخلوا أيديهم في هذا الدم، ولذا سموا «لعقة الدم» واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع.

وقف أبو أمية بن المغيرة وكان اسن قريش فقال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا.

وكان أول داخل هو محمد صلى الله عليه وسلم، وكان قد اشترك معهم من قبل في نقل الأحجار «وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه، وصدق لهجته واجتنابه القاذورات والأدناس فحكموه فيما تنازعوا فيه وانقادوا إلى قضائه"[1]".

قال محمد هلم إلى ثوبًا، حتى إذا أتي له بثوب أخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم أرفعوا جميعًا. فحملوه جميعًا إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء ثم قام محمد بوضعه بيده في موضعه.

أكملت قريش البناء حتى أصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشر ذراعًا ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا يدخلها إلا من سمحوا له بذلك. وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين وجعلوا في ركنها الشامس من داخلها درجًا يصعد بها إلى سطحها. ووضع هبل في داخل الكعبة كما وضعت في داخلها الذخائر التي تعرضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة.

وهكذا نجح محمد عليه الصلاة والسلام في حسم الخلاف والنزاع وجلب

---

(١)المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩.

القرشيين القتال فقال قائل من قريش: وا عجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سنًا وأقلهم مالًا فجعلوه عليهم رئيسا وحاكمًا أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقًا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدودًا وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم"[1] واستمع أبو طالب عم الرسول إلى هذه العبارات فأنشد:

إن لنا أوله وآخره في الحكم العدل الذي لا ننكره

وقد جهدنا جهدنا ليغمره وقد عهدنا أوله وآخره

فإن يكن حقًا ففينا أكثره

وأعادت قريش الصور والأصنام كما كانت فقال المسعودي"[2]: «كان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة: منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضًا، والفاروق قائم على وفد الناس يقسم فيهم، وبعد هذه الصورة صور كثير من أولادهم إلى قصي بن كلاب وغيرهم وفي نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها وكيفية عبادته، وما أشتهر من فعله».

اختلف في سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش في أمر الحجر الأسود فقيل كان ابن خمس وعشرين وقال ابن اسحاق كان ابن خمس وثلاثين، وسواء أصحت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى الرضا بحكمه أول ما دخل من باب الصفا وتصرفه هو في أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة يدل على

---

(١) مروج الذهب: جـ ٢ ص ٢٧٩.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٨.

ما كان له من مكانة سامية في نفوس أهل مكة ومن تقدير جم لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد"[1].

الكعبة عند ظهور الإسلام:

قبل ظهور الإسلام نبذ البعض كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم عبادة الأوثان ونظروا إلى الكعبة على اعتبارها بيت الله الحرام، ولذا يجب تخليصها من الأوثان ومظاهر الشرك بالله عز وجل. كما نظروا إلى الحياة نظرة أكثر سموًا، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة التي امتدت جذورها إلى أعماق حياة العرب ولا يمكنالقضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربي من أساسه.

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الإصلاح وإلى انقاذ الكعبة من أدران الوثنية ولكنهم ترددوا في نزع أول حجر من أسس ذلك الدين، ولذا كانت جهودهم محدودة فلم تنجح في التخلص من الماضي والقضاء على التقاليد البالية التي كانت تنتقص من شأن العرب وأهميتهم في العصور القديمة.

ولم يكن هناك غير محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت تحيط به العناية الإلهية ويشعر بالغيرة الدينية وكانت روحه العالية لا تقبل تعدد الألهة في بلاد العرب وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات وأصبح يفكر دائمًا في تحطيم هذا النظام القائم ونجح محمد في أن يخلق مجتمعًا نقيًا عظيمًا قويًا سليمًا"[2].

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر سما النبي الكريم ببلاد العرب كلها في فترة

---

(١)هيكل: حياة محمد ص ١٢٤.

(٢) خودا بخش: الحضارة الإسلامية ص ٦.

وجيزة من الزمن قدرها عشرون عامًا ولم تقتلع جذور الوثنية من أرض العرب وحدهم بل إن بارقة الحماس لعبادة إله واحد قد اشتعلت في أفئدة هؤلاء العرب أنفسهم فحملتهم إلى أقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ لرفع اسم الأحد الصمد.

ولم تفت سعة المسافة في عضد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قام بدعوته فانتشلت بلاد شاسعة لا تقل مساحتها عن مليون وربع مليون من الأميال المربعة من لعنة الوثنية انغمس فيها الناس انغماسًا ميئوسًا عن مقاومته لقدم العهد بتقاليد متوارثة ومحمدًا بهذا يستحق لقب محطم الأصنام ومزيل الوثنية"[١]".

وصف ابن حزم"[٢]" أثر الإسلام في تقدم العرب وتخليصهم من مفاسد الجاهلية فقال: «وكانت العرب بلا خلاف قومًا لقاحًا لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وإياد وقضاعة أو ملوكًا في بلادهم يتوارثون الملك كابرًا عن كابر.. فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله وهم آلاف وصاروا أخوة كبني أب أو أم وانحل كل ما أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسوله طوعًا بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ولا بطمع في عز. بل كلهم أقوى جيشًا من جيشه، وأكثر مالًا وسلاحًا منه. وأوسع بلدًا من بلده».

ووصف «فون كريمر» أثر الإسلام في توحيد العرب فقال: جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب وأن فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية.

---

(١) مولاي محمد علي: محمد رسول الله ص ١٥.

(٢)ابن حزم: الفصل في الملل.

الرسول والكعبة:

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سرًا كل من يثق فيه أو يريمنه قبولًا للدين الجديد وكان يصلي هو والمسلمون خفية في شعاب مكة"[١]" إلى أن أمره الله بإظهار دينه فقد نزلت عليه هذه الآيات الكريمة: «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين»"[٢]". وجهر الرسول بالإسلام وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله ونبذ الوثنية. ولجأ في ذلك إلى طريقة عربية متبعة وقتئذ وهي طريقة النداء فسار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ونادى كل بطن من بطون قريش حتى إذا اجتمعوا إليه قال لهم: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الأخرة نصيبًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. فقال له أبو لهب تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى في أبي لهب وزوجته: «تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل منمسد».

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهورًا واضحًا فقد كان جهر الرسول بالدعوة إلى وحدانية الله وغضه من شأن الأوثان كل ذلك جعل قريشًا تؤمن بأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث و «العبادة القومية»"[٣]" وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ.

كانت قريش ترى أنها إذا اتبعت الدين الإسلامي سقطت قيمة أصنامها وضاعت قدسيتها، وبذلك تفقد قريش ما كانت تستفيده من قدوم القبائل العربية للحج إلى مكة وتقديم القرابين إلى الأوثان التي نصبتها قريش حول الكعبة. كما

---

(١)سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٥.

(٢)سورة الحجر: آية ٩٤ – ٩٥.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧.

كان عزوف قريش عن عبادة الأصنام يفقدها احترامها بين العرب ويجعل تجارتها عرضة للخطر كسائر تجارات القبائل الأخرى بعد أن كانت في أمان لا يعتدي عليها أحد لئلا يعرض نفسه لنقمة الألهة وغضبها.

وكان الإسلام يساوي بين الجميع حينما كانت قريش تدين بنظام الطبقات فكان سراتهم يأنفون من مخالطة السوقة أو مجالستهم وكان الإسلام يحرم الموبقات ورذائل الجاهلية وهذه أحب الأشياء إلى زعماء قريش.

اشتد عذاب قريش للمسلمين فسمح الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة واستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام حتى إذا أسلم حمزة بن عبد المطلب وكان شخصية لها شأن كبير كف القرشيون عن المسلمين بعض أذاهم حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب دخل الإسلام في دور جديد، فكان المسلمون قبل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون وجهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم، كما أعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر"[1].

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فرارًا من أذى قريش وإسلام حمزة وعمر ضربتين أصابتا قريشًا في الصميم فرأى القرشيون أن يتخذوا أمرًا حاسمًا فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب. وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم في بيع أو شراء أو زواج ولا يجلسوهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم محمدًا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة"[2].

---

(١) المقريزي: امتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥.

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٣٧٥.

ظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين في شعب من شعاب مكة ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضروري إلا خفية وكانوا لا يخرجون إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في جميع أرجاء بلاد العرب وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجاج من زيارة الكعبة بمكة التي كانت تعتبر مركز ديانة العرب حينئذ.

ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم في العروبة بني هاشم وبني عبد المطلب، وعبر زهير بن أمية عن رأيهم فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكي لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة"[1]".

وتروي المصادر العربية أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى في حلمه أن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة وأخبر فمحت كل ما فيها من ظلم أو قطيعة رحم وبقي بها اسم الله. وأخبر الرسول عمه برؤياه فقدم أبو طالب على المشركين وقال: «هلموا إلى صحيفتكم فإن كانت كما قال ابن أخي»، فوافقوه، وإذا بالصحيفة قد تآكلت وانمحت عباراتها عدا عبارة باسمك اللهم وحاول أبو جهل أن ينقض الاتفاق ولكن هب في وجهه بعض رجالات قريش الذين أحزنتهم القطيعة فأرغموا على نقض الصحيفة وعاد المسلمون إلى الصلاة عند الكعبة.

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام ونشر الإسلام بين أهل مكة، وكان كل اعتماده في نشر الدعوة في موسم الحج، فكان يلتقي بالقبائل عند الكعبة ويدعوها إلى الإسلام، ولكن عمه أبا لهب كان يصدهم عن سماعه فيقول: «إنما

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٩٤.

يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه». ولكن كثيرًا من القبائل رأت في الإسلام خير دين يخلصهم من الوثنية ورذائل الجاهلية.

وبعد فترة وجيزة أسري بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث عرج به إلى السموات السبع، وفي تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس"[1]".

خروج الرسول والمسلمين العمرة:

هاجر الرسول والمسلمون إلى يثرب «المدينة المنورة» واستمر الصراع بين المسلمين وقريش واتخذ هذا الصراع شكل حروب متصلة تسمى «الغزوات» أشهرها غزوة بدر، وغزوة أحد وغزوة الخندق.

وفي ذي القعدة سنة ٦هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمرًا لا غازيًا ليعلن للعرب أن دينه الإسلامي يحترم الكعبة، كما يحترمونها، فيقرب بينه وبينهم يزيل شيئًا من جفوتهم له، وخرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار وليس معهم سلاح إلا السيوف وأغمادها، وكان معهم هدي كثير يسوقونه إلى فقراء أهل مكة.

علم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمين فأصابهم الذعر واجمعت قريش وحلفاؤها على صده عن المسجد الحرام وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس لمنعه من دخول مكة. فقال الرسول: ويح قريش لقد أكلتهم الرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب"[2]"ثم أمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٥ – ١٠.

(٢)الطبري جـ ٢ ص ٢٧٨.

طريق خالد ثم نزل في الحديبية.

ارسلت قريش بعض رسلها يطلبون من الرسول العدول عن دخول مكة، وعاد أحدهم إلى قريش وهو عروة بن مسعود الثقفي يقول: إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه، ورأى الرسول أن يفاوض قريشًا في السماح للمسلمين بالعمرة، لكنهم أبوا ذلك عليهم، وبعثت قريش بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرة لكن المسلمين هزموهم.

لم تجد قريش مفرًا من التفاوض مع الرسول في الصلح فاتفقوا على:

أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين ٢" أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلمًا بدون إذن وليه ولا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد ٣" من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك، ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك. ٤" أن يرجع الرسول هذا العام دون أن يؤدي العمرة فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش ليس معه إلا سلاح المسافر"[١].

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً سياسياً عظيماً إذ إنتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت تقودها لقتاله، وقد أراد الرسول منها أن تخلي بينه وبين غيرها من العرب فمكنته بهذه الموادعة مما أراد وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على نطاق واسع وإعترفت بحق المسلمين في القدوم إلى الكعبة وأداء العمرة.

كما أخذت قريش بعد صلح الحديبية تغير نظرها إلى الرسول فأصبحت ترى أنه قرشي على الرغم من العداوة بينها وبينه ويجمعه وإياها نسب واحد

---

(١)ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٦.

وصارت تعجب بعلو شأنه الديني والسياسي مما جعل بعض رجالاتها مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة وإعتناق الإسلام.

وكان هذا الصلح بمثابة إعتراف من قريش بقوة الجماعة الإسلامية وإيذاناً بنهاية عهد الوثنية وتحرير الكعبة من أوثانها وهو ما حدث فعلًا حينما تقدم الرسول من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ودخل مكة دخول الفاتح وحطم أصنام الكعبة.

إستفاد الرسول من صلح الحديبية فقد بدأ نشاطاً عظيماً في ميداني السياسة والحرب فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب فدعا ملوك الروم والفرس والحبشة وأمراء العرب إلى الإسلام، كما أخذ يضم إليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة، ثم وجه ضربة قاضية إلى ألد أعدائه في جزيرة العرب وهم يهود خيبر.

غضبت القبائل العربية على قريش لأنها إنفردت بالصلح مع المسلمين فتخلت عن نصرتها وعمل الرسول على ضم هذه القبائل إلى الجماعة الإسلامية واحدة بعد أخرى. أما قريش فقد ظلت على عزلتها وجمودها في الدين والسياسة وما لبثت أن أدركت عجز سياستها بعد الصلح فرات أن تتركأمرها ومصيرها في يد القضاء والقدر.

حان الوقت الذي حددته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداءالعمرة في مكة وقضاء ثلاثة أيام عند الكعبة. وحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين يبلغ نحو ألفين وصحبوا معهم ستين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة. وكم تمنى أعداؤه من المشركين أن يمنعوا تقدمه نحو مكة لولا ما بينهم من تعاهد فتركوه يتقدم نحو التلال المجاورة. وعندما أصبح الرسول قريباً من مكة ترك المسلمون أسلحتهم وقام بحراستها مائتان من الجند المسلمين وقال الرسول: لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن نكون قريباً منه فإذا رأينا من

الشركين الغدر كان السلاح قريباً منا.

جلت قريش عن مكة وصعدت إلى التلال المجاورة وتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام ممتطياً ظهر ناقته القصواء يحيط به كبار الصحابة ومن خلفهم تقدم المسلمون وهم جميعاً ينادون: لبيك لبيك حتى إذا بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: اللهم إرحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة. ثم إستلم الركن عند الحجر الأسود وهرول وهرول أصحابه معه، فلما إستلم الركن اليماني مشى حتى إستلم الحجر الأسود مهرولًا من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها ومن خلفه المسلمون يحتذون حذوه، ولما أتم المسلمون الطوافبالكعبة إنتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والروة فسعى بينهما سبعاً كماكان يفعل العرب من قبل ثم نحر الهدي عند المروة وحلق رأسه وأتم بذلك فرائض العمرة.

وفي اليوم التالي دخل الرسول إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر. ولقد كانت الأوثان لا تزال تحيط بالكعبة وإعتلى بلال، مؤذن الرسول، سقف الكعبة وأذن في المسلمين لصلاة الظهر عندها وأم الرسول الألفين من المسلمين وأقاموا جميعاً في مكة ثلاثة أيام، كما نصت معاهدة الحديبية، زاروا فيها أهلهم وأصدقاءهم وإطمأنوا على مصالحهم.

الكعبة بعد فتح مكة:

إنتشر الإسلام في معظم أرجاء الجزيرة العربية. وجالت خواطر كثيرة في نفس محمد صلى الله عليه وسلم جعلته يفكر في القيام بمشروع كبير. فقد تذكر وطنه الأصلي وتذكر أسرته وأقاربه والسنوات السعيدة التي قضاها في مكة التي ما زالت في أيدي أعدائه المشركين وتذكر أن الكعبة التي يحج إليها أولاد إسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين وعزم على ان يخلص بيت الله الحرام

من أيدي المشركين فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده ومقصداً للمسلمين.

نقض القرشيون معاهدة الحديبية فقد باغتوا خيام بني خزاعة المسلمين وقتلوا عشرين مسلماً فبدأ المسلمون يستعدون للقتال فقد شعر القرشيون بالخوف من إزدياد قوى المسلمين المستمر ورأوا أن يبتجنبوا الدخول معهم في حروب ومعارك فبعثوا بقائدهم أبي سفيان إلى المدينة كسفير للسلام فقد كانوا يعرفون صلته بالرسول فقد كان الرسول متزوجاً من ابنته أم حبيبة.

وكانت مهمة أبي سفيان صعبة فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف بالأمس منه موقف العداء. وإلتمس أبو سفيان وساطة أبي بكر ثم على بن أبي طالب وابنته أم حبيبة دون جدوى وعاد أبو سفيان إلى مكة خائباً وإستقبله القرشيون بالسخرية والإستهزاء.

أعد الرسول حملة عسكرية لفتح مكة وتحرير الكعبة من الأوثان ثم خرجالرسول على رأس عشرة آلاف مسلم وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر دروب بين الجبال غير مطروقة ونهي المسلمون عن إصدار صوت أو دق طبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم. وخلال الرحلة قدم على الرسول عمه العباس ومعه أسرته معلناً إسلامه. وقابله الرسول بترحاب وحفاوة وكان العباس يتولى السقاية بمكة. وأرسل العباس أسرته إلى المدينة وصحب هو الجيش الإسلامي. ووصل الجيش إلى مر الظهران دون أن يكتشف المشركون أمره. وكان وصوله عندما خيم الظلام فأقاموا خيامهم وسمح عمر لهم لأول مرة أن يشعلوا النيران للإضاءة.

إعتنق أبو سفيان زعيم المشركين الإسلام وأراد أن يؤمن أهل مكة على مصيرهم وكان الرسول رحيماً كريماً فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن »قال الرسول للعباس في

أمر أبي سفيان: إحبسه بمضيق الوادي حتى يرى جنود الله تمر. وقف أبو سفيان مع العباس في واد ضيق يشاهد كتائب المسلمين وأسلحتهم المختلفة وكان العباسيذكر له أسماء القبائل فكان أبو سفيان يبدي تعجبه من كثرة عددها، ودقة نظامها وحماسة جندها فقد كان المسلمون قد تقدموا كثيراً في الفنون الحربية.

ثم أمر الرسول في كتيته الحضراء وفيها المهاجرون والأنصار فقال أبوسفيان: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ فقال العباس : هذا رسول الله في الانصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، فقال العباس: يا أبا سفيانإنها النبوة ثم نصحه العباس قائلًا: النجاة إلى قومك.

أسرع أبو سفيان إلى مكة ليخبر أهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة فصاح فيهم: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بمالا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ولماكان أبو سفيان ألدّأعداء الرسول فقد كان لكلماته أثرها في نفوس أهل مكة فلم يفكروا في المقاومة وباتوا ينتظرون قدوم محمد إلى مكة.

تقدم الرسول إلى بواب مكة ممتطياً ظهر ناقته وعن يمينه سار أبو بكر وسار خلفه أسامة بن زيد، دخل محمد أبواب مكة عند شروق الشمس لاكدخول المنتصر الفائز بل دخول حاج ورع في ملابس الإحرام وهو يرتل الآيات القرآنية الكريمة "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته علبك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزًا".

إتجه الرسول إلى الكعبة حيث تذكر أحداث الماضي وكيف كانت الكعبة

مكاناً مقدساً عند الأجداد وبيت الله الحرام وطاف الرسول حول هذا المكان المقدس سبع مرات وفي كل مرة يلمس الحجر الأسود وأراد الرسول أن يدخل الكعبة ولكن عثمان بن طلحة كان قد أغلق أبوابها. وأراد علي بن أبي طالب أن ينتزع المفاتيح من عثمان، ولكن الرسول أمره بإعادتها إلى عثمان، وكان يتولى حجابة الكعبة وتأثر عثمان من عطف الرسول فأعلن إعتناقه الإسلام وإستمر يتولى الحجابة.

تفرغ الرسول لتطهير الكعبة مما حولها من أوثان وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنماً، فقام المسلمون بتحطيمها. وكان هبل أكبر هذه الأوثان وكان المشركون قد جلبوه من البلقان في سوريا يؤمنون أنه قادر على إنزال المطر الذي كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة. كما كان هناك أوثان تمثل إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، وقال الرسول عن تمثال إبراهيم: قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، وكانت هناك لوحات تصور الملائكة على صورة نساء جميلات فحطم الرسول هذه اللوحات. وعثر الرسول على صورة لحمامة منحوتة على الخشب فحطمها بيديه وألقى بها على الأرض بإعتبارها من مظاهر الوثنية.

وحطم صحابة الرسول باقي التماثيل والأصنام، وهو يقول "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"[١].

ومن الكعبة إتجه الرسول نحو بئر زمزم، وكان العرب يقدسونها، فقد فجر المولى عز وجل هذه البئر لينقذ هاجر وابنها إسماعيل من الموت عطشاً، وتوارث العرب تقديس هذه البئر. حتى إذا إقترب الرسول من البئر قدم له

---

١ سورة الإسراء آية ٨١.

العباس شربة ماء من البئر حتى إذا شربها أصبح ذلك سنة يتبعها المسلمون. وولى الرسول عمه أبا العباس منصب السقاية.

وعند الظهر أمر الرسول أحد المسلمين بأن يؤذن للصلاة من فوق الكعبة وإتبع المسلمون هذه السنة وإتجه الرسول بصلاته إلى الكعبة قبلة جميع المسلمين في كل مكان وزمان.

تحدث الرسول إلى أهل مكة فأبدى رحمة وعطفاً وشرح لهم تعاليم العقيدة الإسلامية وأعلن إنتصار المسلمين وتعالت صيحات المسلمين«الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله محمد رسول الله»،وبعد أن إنتهى الرسول من الشعائر الدينية نزل من على جبل الصفا وقدم إليه اهل مكة رجالًا ونساء يمرون أمامه يعلنون إعتناقهم الإسلام ونبذهم الوثنية.

وكان الرسول رحيماً عطوفاً فقد قدم إليه زعماء قريش يستنظرون حكمه عليهم فقال لهم الرسول: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. فقال الرسول: إذهبوا فأنتم الطلقاء.

ودلت تصرفات الرسول في مكة على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكن توج نجاحه وإنتصاره بالرحمة والعفو»"[١]".

ولم يكتف الرسول بتطهير الكعبة ومكة من الأصنام بل أرسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة في المدن والقرى المجاورة وينشروا الإسلام.

كان فتح مكة وإستيلاء المسلمين على الكعبة من أكبر العوامل التي

---

١ ارفنج: حياة محمد "من ترجمتنا" ص٢٢٩.

ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية، فقد إعتقدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة بادىء ذي بدء ودخلوا فيه أفواجاً وعرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن، أخذت تفد في هذه السنة وفوداً على الرسول تعلن إعتناقها الإسلام في حضرته ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التي إعتاد الرسول أن يمنحها لوفود القائل العربية"[1]".

حج أبي بكر بالمسلمين إلى الكعبة:

كانت الوفود لا تزال تقدم إلى المدينة، تعلن غسلامها، ويلقنها الرسول تعاليم الإسلام. وإقترب موعد الحج، ولم يستطع الرسول ان يخرج بالمسلمين إلى الحج، فالوفود تقدم تباعاً، ولا يزال في شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بعد بالله ورسوله. وما يزال بها بعض الكفار واليهود، والكفار على ما كانوا عليه في الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، والكفار تجس. فلييق الرسول إذاً بالدينة حييم الله كلمته وحى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر في الناس حاجاً"[2]".

كان المشركون لا يزالون يحجون إلى بيت الله الحرام، وكان لا بد أنتتخلص الكعبة من قدوم هؤلاء المشركين كما تخلصت بالأمس من الأصنام ومظاهر الوثنية.

خرج أبو بكر أميراً للحج، على رأس ثلثمائة حاج، يصحبون عشرين من الإبل للتضحية بها عند الكعبة وبعد فترة قصيرة، أمر رسول الله علي ابن أبي طالب أن يمتطي ظهر «الأضحى» إحدى الإبل السريعة، وأن يسرع في طريقه

---

١ ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٢ ص ٩٤ – ٩٥.

٢ هيكل: حياة محمد ص ٤٥٥.

إلى مكة، حتى يصل إليها قبل قدوم الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب، ليبلغهم سورة من القرآن الكريم نزل بها الوحي.

وقام علي بن أبي طالب بالمهمة خير قيام، فوصل إلى مكة قبل الوقوف علىعرفة. وحينما إجتمع المسلمون في منى، وقف علي يعلن أن الرسول قد بعثه ليبلغهم سورة التوبة التي نزل بها الوحي، وهي تبدأ بهذه الآيات الكريمة: "براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبّم فهو خير لكم وإن توليّم فاعلموا أنكم غير معجزيي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ويظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. فإذا إنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون. كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند السجد الحرام فما إستقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين""[١]".

وجاء في السورة نفسها: "يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم""[٢]".

---

١ سورة التوبة.

٢ سورة التوبة.

قال علي بن أبي طالب: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عهد فهو إلى مدته. وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم إلى بلادهم. ومن يؤمئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالكعبة عريان.

حجة الوداع:

أبدى الرسول، –صلى الله عليه وسلم–، رغبته في الحج، ولم يكن الرسول قد حج بعد الحج الأكبر وإن يكن قد إعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين وأسرع المسلمون من جميع أرجاء بلاد العرب يلبون نداء الرسول. وإمتلأت طرقات المدينة بالقبائل العربية التي قدمت من سائر المدن والقرى والجبال، وإمتلأت الوديان المجاورة بخيامهم، وكان هذا مظهراً رائعاً لإنتصار العقيدة الإسلامية.

خرج الرسول مع آلاف المسلمين، وصحبوا عدداً كبيراً من الإبل، وقد زينوها ليذبحوها عند الكعبة. وكان الرسول في طريقه من مكة يتوقف عند كل مسجد ليؤدي الصلاة، وهو يرفع صوته بالدعاء والشكر لله.

قضى المسلمون الليلة الأولى بعد رحيلهم من المدينة في قرية ذي الحليفة حيث أحرم الرسول والمسلمون وتركوا سلاحهم. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، بعد أداء صلاة الفجر، إمتطى الرسول ظهر ناقته "القصواء" حتى إذا وصل إلى وادي بيضة توجه الرسول إلى ربه ونادى ملبياً، والمسلمون من ورائه: «لبيك اللهم لبيك. لا شريك لك لبيك. الحمد والنعمة والشكر لك لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك » .

وهذا الدعاء، كما تذكر الروايات، هو الذي توجه إبراهيم به من أعلى جبل

أبي قبيص، قرب مكة، مبشراً بالدين الصادق. وتذكر الروايات أيضاً أن صوت إبراهيم كان من القوة بحيث سمعه كل كائن حي في العالم، بل سمعه الجنين في الرحم فقال: لبيك اللهم لبيك.

ولما بلغ المسلمون سرف، وهي محلة في الطريق بين المدينة ومكة، قال محمد لأصحابه: من با يكن منكم معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا.

مضى الحجاج في طريقهم، وقد إنتشروا في مساحة كبيرة تبلغ عدة أميال فوق الجبال والوديان، يتردد فيها نداؤهم وصلاتهم، ولم يعد هناك أعداء يرهب المسلمون جانبهم، فقد إنتشر الإسلام في كل مكان في الجزيرة العربية. وإتخذ الرسول نفس الطريق الذي إتبعه عند فتح مكة، وما لبث أن دخلها من باب بني شيبة.

أراد الرسول أن تكون مناسك الحج مثلًا يحتذيه المسلمون في السنوات التالية وقد وصل الحجاج إلى مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة، وتقدم الرسول والمسلمون إلى الكعبة. فاستلم الرسول الحجر الأسود فقبله، وطاف بالبيت سبعاً هرول في الثلاث الأول منها على نحو ما فعل في عمرة القضاء. وبعد أن صل عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود مرة أخرى، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا، ثم سعى بين الصفا والمروة.

وبعد أيام قليلة من وصول الرسول إلى مكة، لحق به علي بن أبي طالب بعد عودته من اليمن، ويذكر الطبري أن علياً لم يكن معههدي يضحي به فأشركه ئي هديه ونحر الرسول الهدي عنهما.

وفي الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، ذهب محمد صلى الله عليه وسلم

إلى منى، فأقام بخيامه فيها، وصلى فروض يومه، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين أشرقت الشمس، وتوجه بها نحو جبل عرفات، يتبعه المسلمون. حتى إذا غربت الشمس، إتجه الرسول إلى بطن الوادي من أرض عرفة، وهناك نادى في الناس: أيها الناس، إسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

فقد شعر الرسول بقرب منيته، وأن هذه الحجة هي حجة الوداع. فرأى أن يثبت تعاليم الإسلام في عقول وقلوب المسلمين. ولم يكتف الرسولبأن لقن المسلمين تعاليم الإسلام، بل لقنهم قواعد السلوك والأخلاق ومعاملة الناس.

ختم الرسول خطبته بقوله: «فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن إعتصميم به فلن تضلوا ابداً أمراً بيناً: كتاب الله وسنة رسوله. أيها الناس، إسمعوا قولي وإعقلوه. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لإمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ ».

حتى إذا إنتهى الرسول من خطابه، نزل عن ناقته القصواء، وأقام حتى صلى الظهر والعصر، ثم امتطاها حتى بلغ الصخرات، حيث تلا على المسلمين الآية الكريمة: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمي ورضيت لكم الإسلام ديناً"[1] وأدرك أبو بكر وبعض المسلمين أن الرسول موشك على لقاء ربه، مما أثار حزنهم.

غادر الرسول عرفات، وقضى ليلة بالمزدلفة، وصلى بها الرسول العشاء ثم الفجر في اليوم التالي، ثم امتطى ناقته وبلال يقودها، وأسامة على عجزها

---

١ سورة المائدة.

رافعاً ثوباً يظله به من الحر. وإتجه الرسول نحو وادي منى،ليرمي بحصيات سبع كلًا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات إحياء لذكرى إبراهيم الذي رمى بحصيات الشيطان الذي حاول ثلاثاً أن يوقفه في هذا المكان.

أعتق الرسول ثلاثة وستين عبداً، وتحر بيده ثلاثة وستين بعيراً، وأمر علي ابن أبي طالب أن يوزع لحومها وجلودها على فقراء الحجاج. وقام معمر بن عبد ليحلق رأس الرسول، وبدأ بالشق الأيمن وإنتهى بالشق الأيسر ثم طافالرسول بالكعبة مرة أخرى وقدم له عمه العباس بن عبد المطلب، الذي كان يتولى السقاية، شربة ماء من بئر زمزم. ثم بدأ الرسول والمسلمون رحلتهم إلى المدينة المنورة، مغادراً مكة موطنه الأصلي على رأس قافلة الحجاج.

حتى إذا إقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة صاح: "الله أكبر، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، مالك الملك له الحمد والشكر، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده". وهكذا إنتهت حجة الوداع، وهي آخر مرة يحج فيها الرسول.

١٤ - الكعبة قبلة الصلاة

فرض الصلاة:

بعد التوحيد، كانت الصلاة، وما يستتبعها من طهارة، أول شرائع الإسلام، فيقول الطبري"[١]": «كان أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الإسلام عليه – أي على الرسول صلى الله عليه وسلم – بعد الإقرار بالتوحيد، والبراءة من الأوثان والأصنام، وخلع الأنداد، الصلاة».

أتى جبريل عليه السلام، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كمارأى جبريل يتوضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى الرسول بصلاته، ثم إنصرف جبريل عليه السلام»"[٢]".

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته، حيث إلتقى بخديجة، فتوضأ مامها ليريها كيف الطهور للصلاة كما علمه جبريل، فتوضأت، ثم صلى بها الرسول كماصلى به جبريل عليه السلام، فصلت بصلاته"[٣]".

ثم كان إسلام علي بن أبي طالب، واقامته الصلاة خلف الرسول. وكان علي حينئذ في العاشرة من عمره، مقيماً في بيت الرسول، في كفالته، إذ أراد الرسول أن يخفف عن عمه أبي طالب، وكان ذاعيال كثير، وكانت قريش تمر

---

١ تاريخ الطبري جـ٢ ص ٥٣.

٢ سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٦٠.

٣ تاريخ الطبري جـ٢ ص ٥٤.

بأزمة شديدة"[1]" رأى علي الرسول وخديجة يصليان فعجب مما رآه، حتى إذا إنتهيا من الصلاة، توجه إليهما بالسؤال عن سبب سجودهما، فأخبره الرسول أنهما يسجدان لله عز وجل، الذي إصطفاه رسولًا ونبياً، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادته، سبحانه وتعالى. ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، وإلى إعتناق الإسلام وإلى نبذ عبادة الأوثان، وتلا محمد بعض آيات القرآن الكريم، فأخذ علي بإعجاز هذه الآيات وجمالها، وطلب علي من الرسول أن يمهله حتى يشاور أباه أبا طالب فطلب الرسول منه أن يتكتم الأمر. وقضى علي ليلة مضطربة، أمعن فيها التفكير ، حتى إذا كان الصباح التالي، أعلن علي للرسول. إيمانه وإسلامه.

الإسراء والمعراج:

أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت القدس من إيلياء، وقد فشا الإسلام مكة في قريش، وفي القبائل كلها. وكان في مسراه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما آراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع ها ما يريد"[2]".

روى الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء فقال"[3]": «بينما أنا في الحطيم، مضطجعاً بين النائم واليقظان إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه

---

١ سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٦٠.

٢ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٣٧.

٣ ابن الديع الشيبانى: تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول جـ ٤ ص ٢٣٥ – ٢٣٨ وهي رواية أنس بن مالك.

–يعني ثغرة نحره إلى شعرته– فاستخرج قلبي. ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي. ثم خشي. ثم أعيد، ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار، أبيض، هو البراق، يضع خطوة عند أقصى طرفه، فحملت عليه. فانطلق ني جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا. فاستفتح. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه فسلمت عليه. فرد علي السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح النبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصنا فإذا أنا بيحيى و عيسى وهما ابنا: الحالة. قال: هذا يحيى وعيسى عليهما السلام فسلم عليهما. فسلمت عليهما، فردا علي السلام ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فلنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصنا فإذا يوسف عليه السلام. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد علي ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح لنا. فلما خلصنا فإذا إدريس عليه السلام. فقال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فرد علي،ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى السماء الخامسة، فاستفتح: فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فلنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصنا فإذا

هارون عليه السلام. قال: هذا هارون، فسلم عليه فسلمت عليه فرد على. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل مرحباً به، فلنعم المجيء جاء، ففتح علينا، فلما خلصنا فإذا موسى عليه السلام. قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد علي. ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما جاوزته بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة. فاستفتح. فقيل: من هذا. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل اليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فلنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصنا فإذا إبراهيم عليه السلام. قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام. ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

«ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى. وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران. فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لين وإناء من عسل فأخذت اللبن. فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم. فرجعت فمررت على موسى عليه السلام، فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمسين صلاة، في اليوم والليلة. فقال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة. فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف

لأمتك.فرجعت، فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى. فقال: بم أمرت؟ قلت: وضع عني عشراً. فقال مثله، فلم أزل بين ربي وموسى، حتى أمرت بخمس صلوات، فرجعت إلى موسى عليه السلام. فقال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قلت: قد سألت ربي حتى إستحييت، ولكن أرضى وأسلم. فلما جاوزات موسى عليه السلام نادى مناد: أمضيت فريضتي وخففتعن عبادي».

وفي اليوم التالي، قدم الرسول عليه الصلاة والسلام على قريش في مجلسهمعند الكعبة فأخبرهم بالإسراء والمعراج، فأكثر الناس في الحديث، وقال بعضهم: هذا والله الإمر"[1]" البين، والله إن العير لتطرد، شهراً من مكة الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة وذهب بعض الناس إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكممن ذلك، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون هذه، ثم أقبل حتى إنتهى إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم. فقال: يا نبي الله، فصفه لي، فإني جئته. فجعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: «صدقت، أشهد أنك رسول الله» كلما وصف له منه شيئاً، حتى إذا إنتهى الرسول عليه الصلاة والسلام قال أبو بكر: صدقت أشهدأنك رسول الله. فقال

---

١ الأمر: العجيب المنكر "بكسر الهمزة"

–صلى الله عليه وسلم– لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق"[1].

الكعبة قبلة المسلمين:

عند أول ظهور الإسلام، كان للمسلمين حرية التوجه بصلاتهم إلى أي مكان في المشرق والمغرب، فيقول الله عز وجل: "لله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم"[2].

ثم كان المسلمون في المدينة يتجهون بصلاتهم إلى بيت المقدس، حتى أمر الله عز وجل أن تكون الكعبة قبلة المسلمين في صلاتهم، فقال سبحانه وتعالى: "قد نرى تقلب وجهلك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنم فولوا وجوهكم شطره"[3].

وقال عز وجل أيضاً: "ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم و إخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون"[4].

وغضب اليهود لتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وحاولوا فتنةبعض المسلمين، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على

---

١ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٣٩ – ٤٠.

٢ سورة البقرة آية ١١٥.

٣ سورة البقرة آية ١٤٤.

سورة البقرة آية ١٥٠.

٤ سورة البقرة آية ١٥٠.

الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلالنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدىالله"[١] .

١ سورة البقرة الآيتان ١٤٢ و١٤٣.

١٥ - ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

هدم الكعبة:

أعلن الحسين بن على وعبد الله بن الزبير معارضتهما لتولي يزيد الخلافة الأموية بعد وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان إذ تحولت الخلافة من نظام الشورى والإنتخاب إلى النظام الملكي الوراثي. وأمر الخليفة يزيد بن معاوية واليه بالمدينة أن يأخذ البيعة له بالخلافة من الحسين وابن الزبير باعتبار أنهما في مقدمة زعماء المسلمين حينئذ. ورفض الزعيمان البيعة وخرجا إلى مكة. ووجد ابن الزبير في مكة الأمن والطمأنينة التي إفتقدها في المدينة، وإستطاع أن يكسب عطف المسلمين وتأييدهم جينما قال لهم: «إني عائذ بالبيت».

لاذ ابن الزبير بالكعبة، وسمى نفسه العائذ بالبيت، وقام يصلي جوار

الكعبة ليلا ونهاراً، فيطيل السجود، ويكثر من التسبيح وذكر الله، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه. وكان وجود ابن الزبير إلى جوار الكعبة يتيح له فرصة إجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون إلى الكعبة للطواف والتبرك بها وأداء العمرة، حيث يبث دعوته السياسية فيهم. ويثير فيهم روح السخط علىيزيد والخلافة الأموية.

إستفحلت حركة عبدالله بن الزبير، ورأى الخليفة الأموي أن يقف منهاموقفاً حاسماً. فبعث جيشاً بقيادة الحصين بن نمير لغزو الكعبة والقضاء على ابن الزبير وتحصن ابن الزبير وأنصاره بالكعبة، بعد أن أحكموا مراصد مكة. وأبدى المسلمون جميعاً سخطهم لإقدام الجيش الأموي على عز والكعبة ومكة.

حاصر الجيش الأموي ابن الزبير في الكعبة. وقذفها الحصين بالمنجنيق، فتهدمت أجزاء كثيرة منها. ثم امتدت إليها ألسنة من اللهب فحرقت أجزاء أخرى منها.

أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو المسؤول عما أصاب الكعبة، على حين ألقى ابن الزبير وأنصاره التبعة على عاتق الأمويين. واختلف المؤرخون فيمن يقع عليه الاتهام.

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسؤولية على عاتق جند الشام، ففي مقدمتهم المسعودي"[١]" الذي ذكر أن جند الشام هم سبب تهدم أو حرق الكعبة. فوصف ما حدث فقال: «فتواردت أحجار المنجنيق والعرادات على البيت، ورمي الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات، وانهدمت الكعبة، واحترقت البنية». ويوجه كل من اليعقوبي"[٢]" وابن عساكر"[٣]" وابن طباطبا"[٤]" الاتهام أيضًاإلى جند الشام.

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام إلى جند ابن الزبير، فمنهم الطبري"[٥]" فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارًا تطاير منهاالشرر، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت. ويتهم المؤرخ البلاذري"[٦]" أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا في حرق الكعبة. ولكن الطبري والبلاذري قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب في حرق الكعبة، أما تهدمها فكانتنتيجة قذف جند

---

(١)مروج الذهب جـ ٣ ص ١٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٢٤.

(٣) تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ٣٧٣.

(٤) الفخري ص ١٠٢.

(٥) الطبري جـ ٤ ص ٣٨٣.

(٦) أنساب الأشراف جـ ٤ ص ٥٣.

الشام لها بالحجار المنجنيق.

ووقف بعض المؤرخين موقفًامحايدًا، ومنهم ابن الأثير"[1]" الذي ذكر روايتين عن احتراق الكعبة. فيقول في إحداهما إن بعض الناس ذهبوا إلى أن سبب حرق الكعبة يرجع إلى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق، على حين زعم أخرون أن «الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترقت ثياب البيت»، ولكن ابن الأثير يميل إلى تأييد الرواية الأولى.

وروى ابنكثير"[2]"ثلاث روايات دون أن يرجح إحداها فقال: «فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالنار، فأحترق جدار البيت في يوم السبت. وقيل:إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت.وقيل:إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل، فعلقت النار في أستارها وأخشابها فاحترقت، وأسود الركن،وانصدع في ثلاثة أمكنة منها».

أما العمري"[3]" فلا يتهم ابن الزبير أو القائد الأموي على السواء، فيقول إن سبب حرق الكعبة «أن امرأة أرادت أن تجمر الكعبة، فطارت شرارة من المجمرة في أستارها فاحترقت».

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة فيروي

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ٥٢.

(٢)البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٥.

(٣)مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٥.

ابن قتيبة"[1]"أنه حين طلب الحصين بن نمير من ابن الزبير، بعد موت يزيد أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت، قال ابن الزبير له: وهل تركتم من البيت إلا مدرة، وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته، مع الحريق الذي أصابه. ونحن نميل إلى الرأي القائل إن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة.

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة:

رحل القائد الحصين بن نمير بجيشه الأموي إلى الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية، تاركًا الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها، فأصبح أمر إعادة بنائها من شأن عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في بلاد الحجاز. فهدم ما تبقى منها سليمًا وأعاد بناءها من جديد. وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر في وقت واحد.

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا في تهدم الكعبة، كما انتهوا حرمتها إذ قذفوها بالأحجار، وحمدوا لعبد الله بن الزبير قيامه بإعادة بنائها فروى المؤرخ ابن الأثير"[2]": «لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله ابن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنع بذلك على أهل الشام». ثم أعادابن الزبير بناء الكعبة، ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول.

أثارت رغبة ابن الزبير في إعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له، فقد حار فيالطريقة التي يتبعها في بنائها من جديد: أيهدم الكعبة تمامًا ثم يعيد البناء من

---

(١)الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٨.

(٢)الكامل جـ ٤ ص ٨٧.

جديد؟أم يحاول إصلاحها وترميمها؟ وروى العمري"[1]"حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حل هذه المشكلة المعقدة،فقال:«فشاور ابن الزبير من حضره في هدمها، فهابوا ذلك،وقالوا: نرى أن يصلح ما وهي منها ولا تهدم. فقال لو أن بيت أحدكم أحترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها. فهدمها حتى أفضى إلى قواعد ابراهيم، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر، فحركوا حجرًا منها فرأوا تحته نارًا وهو لا أفزعهم، فبنوا على القواعد، وتمم بناءها وألصق بابها بالأرض وعمل لهاخلفًا أي بابًا من ورائها وأدخل الحجر فيها».

وبذل ابن الزبير جهده في تجميل الكعبة حتى تبدو في أجمل مظهر. وعدد المسعودي"[2]" جهود ابن الزبير في ذلك فقال:«وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذهاهنالك، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشي منقوش، قد حشي النقش السندروسي وأنواع الألوان من الصباغ، فمن رأه ظنه ذهبًا». عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها وإصلاحها، ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا إليه، فقد «كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق»"[3]"ما يجعلترميمها عسيرًا، إذ قد تنهار جدران الكعبة في أي وقت على من فيها. وكان من الضروري ضمان سلامةهذه الجدران، فقد كانت الكعبة مقصد ألاف المسلمين كل عام، حيث يتوافدون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها. كما أن العمري يذكر أنه سبقهدم وإعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات.

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٢٥ – ٢٦.

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩.

(٣)ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٨٧.

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات في بناء الكعبة، فقد زاد في ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعًا، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد. وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر. وعابوا عليه أنه كان «أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والانطاع، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم»"[1]. ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير. فإن وجود بابين يسهل الدخول إلى الكعبة والخروج منها. كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة إلى الحد الذي وصل إليه ابن الزبير. كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوىمرضاة الله والرسول والمسلمين.

وقد سوغ المؤرخ المسعودي"[2]" زيادات ابن الزبير في الكعبة فقال:«وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة، وشهد عنده سبعون شيخًا من قريش أن قريشًا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذي أسسه هو وإسماعيل عليهماالسلام، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين، وجعل له بابين: بابًا يدخل منه وبابًا يخرج منه».

ويذكر العمري"[3]" أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد فيبناء الكعبة ما زاده ابن الزبير، فقال: وذلك لأن خالته عائشة، رضي الله عنها حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة

---

(١)تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٤١٣.

(٢)مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩ – ٣٠.

(٣)مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٥.

حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد ابراهيم. ثم قال: لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفًا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر. فقال ابن الزبير: فليس بنا عجز عن النفقة. فبناها على مقتضى حديث عائشة»

ومهما يكن من أمر، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذي أعاد ابن الزبير بناءها عليه، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة الحصار الثاني في عهد عبد الملك بن مروان.

الحجاج الثقفي والكعبة:

انتشرت دعوة ابن الزبير في أرجاء الدولة الإسلامية، ونجح في السيطرة على جميع أمصارها عدا بلاد الشام التي احتفلت بولائها للخلافة الأموية. ونجح الخليفة الأموي مروان بن الحكم في انتزاع مصر من ولاة ابن الزبير. ثم نجح ابنه عبد الملك في الاستيلاء على بلاد العراق وقتل مصعب بن الزبير، ثم بعث بقائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش كبير إلى بلاد الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير.

وبدأ الحجاج في مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته الحقيقية، وليبث الرهبة والخوف في نفوس أنصار ابن الزبير،«فكان يبعث البعوث إلى عرفة في الحل، ويبعث ابن الزبير بعثًا فيقتتلون هنالك، ففي كل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر»"[1].

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير، ولذا عزم على المسير إليه، فبعث إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه في قتال ابن الزبير وحصار الكعبة

(1) الطبري جـ ٥ ص ٢٠.

ويخبره بضعف ابن الزبير وتفوق أصحابه ويطلب منه الإمداد"[1]". فلما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الملك كبر وكبر معه من كان في داره ثم كتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج فسار في خمسة ألاف من أصحابه حتى لحق به.

تقدم القائدان نحو مكة، فبلغوها في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ في الوقت الذي كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج فنزل بقرب بئر ميمون، وحج بالناس ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعي بين الصفا والمروة حيث منعه عبد الله بن الزبير من ذلك، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج، حتى إذا قارب موسم الحج من الانتهاء،بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار.

بعث عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الحجاج الثقفي ينهاه عن قذف الكعبة بالأحجار ويقول: اتق الله وأكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا. وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف، فأكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة"[2]". ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهي الناس تمامًا من الحج.

فرغ موسم الحج، فنادى الحجاج في الناس أن ينصرفوا إلى بلادهم التماسًا للسلام والنجاة من الأحجار التي يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير. ثم بدأ الحجاج ينفذ وعده. وكان الوقت حينئذ شتاء، فأخذت السماء تبرقوترعد، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عددًا كبيرًامنهم. وشعر

---

(١) ابن الأثير، الكامل جـ ٤ ص ١٤٦.

(٢)المصدر السابق.

جند الشام بالخوف، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهر لغضب السماء لانتهاكهم حرمة بيت الله الحرام، ولذا أمسك الشاميون عن قذف الأحجار، وخشي الحجاج من عواقب تخاذل جنده، فأقبل عليهم يشجعهم، ويثير حماستهم، وأخذ يقذف الأحجار بنفسه. وشاءت المقادير أن تعين الحجاج فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيرًامنهم، فخطب الحجاج في هذه فقال: ألاترون أنهم يصابون، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة"[1]"؟

وأخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبد الله بن الزبير وأصحابه، فكانت تصيب مقتلًا من كثير من رجاله، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة، وأن مصيرهم الموت إذا استمروا في القتال، فخرج كثير منهم إلى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان، فأجابهم إلى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال.

واستمر عبد الله بن الزبير في مقاومة هجوم الجيش الأموي، ولكن ما لبث أن أصابه حجر في جبهته،فأنشد"[2]":

يا رب إن جنود الشام قد كـثروا وهتكوا من حجاب البيت أستارًا

يا رب إني ضعيف الركن مضطهد فأبعث إلى جنودًا منـــكأنصارًا

وسرعان ما تكاثر جند الشام على عبد الله بن الزبير وأنصاره من كل باب، فسقط ابن الزبير صريعًا، وتفرق أنصاره يبتغون السلامة والنجاة، وكان مصرعه في ١٤ جمادي الأول سنة ٧٣هـ.

أعاد الحجاج بناء الكعبة وجعلها كما كانت قبل التجديد الذي أحدثه عبد

---

(١)الطبري جـ ٥ ص ٣٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٧.

الله ابن الزبير بعد حصار الكعبة الأول. وجعل الحجاج للكعبة بابًاواحدًاكما أمره الخليفة عبد الملك بن مروان"[1]". وصف العمري"[2]" موقف عبد الملكوالحجاج من إعادة بناء الكعبة فقال:«ولما قام عبد الملك بن مروان في الخلافة قال: لسنا من تخليط أبي خبيب بشيء «يعني عبد الله بن الزبير» فهدمها «أي الكعبة» وأعادها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في ارتفاعها. ثم جاءه الحارث بن أبي ربيعة المخزومي ومعه رجل أخر، فحدثاه عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم، فندم وجعل ينكتبمخصرة في يده الأرض،ويقول وددت أني تركت أبا خبيب وما تحمل من ذلك. وتولى البناء في زمن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو البناء الخامس الموجود الآن «أي في زمن العمري» والذي هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها. وأعاد الركنين، وسد الباب الذي فتحه ابن الزبير، وسده بيّن إلى الآن، وجعل في الحجر من البيت دون سبعة أذرع،وعلامة ذلك في داخل الحجر لوحان من مرمر منقوشان متقابلان في الجانبين وصار عرض وجهها، وهو الذي فيه الباب، أربعة وعشرين ذراعًا».

بناء عبد الملك قبة الصخرة:

اتخذ عبد الله بن الزبير الحجاز مركزاً لحركته السياسية ولخلافته. وكانالمسلمون يقدمون إلى الكعبة في مواسم الحج والعمرة، فيلقون ابن الزبير فكانوا لا يجدونه إلا قاتمًا بالصلاة أو طائفًابالكعبة، ونجح في أن يبهر أنظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه. فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التي عاشها الخلفاء الأمويون. وانتهز ابنالزبير فرصة

---

(١) الطبري جـ ٥ ص ٣٥.

(٢) مسالك الأبصار جـ١ ص ٩٧.

قدوم هؤلاء الحجاج. فأخذ يبث دعوته فيهم، ودعاهم لمناصرته وتأييده. وكان هؤلاء الحجاج والمعتمرون لا يعودون إلى بلادهم إلا وتحدثوا عمارأوه من أحوال ابن الزبير مشيدين بفضائله، معددين سجاياه، مما أدىإلى انتشار دعوة ابن الزبير في شتى أرجاء الدولة العربية الإسلامية.

وكان ابن الزبير لائذًابالكعبة، يسمى نفسه «العائذ بالبيت» مما أثار عطفالمسلمين عليه، وزاد من عطفهم عليه، كما أثار العاطفة الدينية عامة أقدام الخلفاء الأمويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق. في نفس الوقت الذي استمات فيه ابن الزبير في الدفاع عن الكعبة. وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تحالف ابن الزبير لتقف إلى جانبه في صد الجيوش الأموية عن غزو الكعبة ومكة، فقد قدمت الخوارج الأزارقة، وقدم المختار بن عبيد الثقفي زعيم الشيعة بالعراق، بل بعث نجاشي الحبشة فرقة من جنده تدافع عن الكعبة. وكان بعض المسلمين حين يقدمون إلى مكة للحج أو الاعتمار، ويستمعون لأراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم له وينضمون لحركته ولا يعودون إلى بلادهم بل إن كثيرًا من أهل الشام تظاهروا بالخروج إلى الحجازللحج، وانضموا إلى ابن الزبير.

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة إقامة ابن الزبير في مكة إلى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل إلى مكة كيلا يلتقوا بابن الزبير، ولكنه لم يكن بقادر أن ينهاهم عن أداء فريضة الحج وهي من أركان الإسلام. وأخذ يبحث عن حل أخر، حتى توصل إلى فكرة بناء قبة الصخرة.

بنى عبد الملك قبة الصخرة في بيت المقدس ودعا المسلمينإلى الحج

إليها، ونهاهم عن الحج إلى الكعبة في مكة. وروى المؤرخ اليعقوبي"[1]" تاريخ هذا الحدث فقال:«ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة. فلما رأى عبد الملك ذلك، منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس،وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا. فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية».

ويؤيد الروحي"[2]" هذه الرواية فيقول:«فلما ولي عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا الحج، فبنى عبد الملك قبة الصخرة، وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها».

كان اليعقوبي أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك قبة الصخرة، أما الروحي"[3]" فلا شك في أنه نقل هذه الرواية عنه. ولكن الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة. ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن الوليد بن عبد الملك هو الذي بنى قبة الصخرة. وذهب بعضهم مذاهب أخرى، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين في ذلك على أن بناء

---

(١)تاريخ اليعقوبي جـ ٣ ص ٧ – ٨.

(٢) بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢.

(٣)انظر كتابنا (عبدالله بن الزبير) تجد كثيرًا من التفاصيل.

هذه القبة لا يتمشى مع الفن العربي، وإنما هو مطابق للفن البيزنطي ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة بأن عبد الملك هو الذي بنى قبة الصخرة، ويميلون إلى الأخذ برواية اليعقوبي، ويعتمدون في ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصخرة يقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٢٧هـ. أي في عصر عبد الملك.

١٦-إهتمام الدول الإسلامية بالكعبة

في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين:

اهتم الخلفاء الراشدون بالمسجد الحرام المحيط بالكعبة، فيذكر العمري"[١]"«كان المسجد الحرام، أعني المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر جدار يحيط به فضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها. وكانت الدور محدقة بالكعبة وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية». حتى إذا تولى عمر بن الطاب الخلافة قال: لابد لبيت الله من فناء،وإنكم دخلتمعليه، ولم يدخل عليكم. فوسع المسجد، واشترى الدور المحيطة بالكعبة وهدمها وزادها في المسجد واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة، ووضع فيه القناديل.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة،إبتاع عدة منازل وهدمها ووسع المسجد وبنى الأروقة للمسجد. وزاد عبد الله بن الزبير في مساحة المسجد واشترى منازل بأكثر من عشرة آلاف دينار. وجعل في المسجد عمدًا من الرخام.

واهتم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعمارة المسجد الحرام، وان لميزد فيه،ورفع جداره، وجلب إليه السواري على سفن رحلت في البحر الأحمر إلى جدة، وسقفه بالساج.

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، بعث إلى واليه على مكة خالد

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٥.

ابن عبد الله القسري بستة وثلاثين ألف دينار، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب، وعلى الميزاب، وعلى الأساطين في جوف الكعبة، وعلى أركانها. ولذا يذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد هو «أول من ذهب البيت في السلام»"[1]. وكان عبد المطلب في العصر الجاهلي قد حلى الكعبة بغزالين ذهبيين كان قد عثر عليهما في بئر زمزم عند قيامه بإعادة حفرها، فضربهما في أبواب الكعبة.

وذكر العمري أن الذهب الذي بعثه الوليد بن عبد الملك لتحلية الكعبة مصدره مائدة سليمان بن داود، وكانت من الذهب والفضة، وقد حملت إليه من طليطلة في الأندلس، وكان لها أطواق من الزبرجد والياقوت.

كما أمر الوليد بفرش جوف الكعبة بالرخام الأبيض والأخضر، كما وزر جدران الكعبة بالرخام. واهتم الوليد أيضًا بتوسيع المسجد الحرام، وبعث إليه بالرخام والأحجار اللازمة من بلاد الشام.

في العصر العباسي:

اهتم الخلفاء العباسيون بالكعبة وسائر الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وحرصوا على تيسير الحج، وإنشاء الطرق والبريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن جنوبًا وبلاد العراق شمالًا، وزودوا هذه الطرق بالماء ليرتوي الحجاج منه، وعملوا على التوسيع على أهل مكة فزادوا في أعطياتهم وأغدقوا عليهم الصلات والمنح.

زاد الخليفة العباسي الثاني المنصور في المسجد الحرام، وجعل فيه أعمدة الرخام. كما أمر الخليفة الثالث المهدي بالزيادة في المسجد الحرام، فدخلت

---

(١)المصدر السابق جـ ١ ص ٩٨.

فيه دور كثيرة، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى، واستمر البناء حتى وفاة المهدي"[1]. وعهد المهدي إلى يقطين بتوفير المياه في الطرق الموصلة إلى مكة. ونزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها، وكساها كسوة جديدة، ويروي الطبري أن حجبه الكعبة فيما ذكر رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة، ثم طلي البيت كله بالخلوق، وذكر أنهم لما بلغوا كسوة هشام وجدوها ديباجًا تخينًا جدًا، ووجدواكسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن».

وكانت مواكب الحج من أعظم مواكب الخلفاء العباسيين، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها. وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسى والطعام. ويتقدم الوكب هوادج تعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب، يقيم في إحداها أمير الحج.

واهتم الخليفة العباسي هارون الرشيد بالكعبة والحج، فكان يحج سنة، ويغزو سنة، وكان إذا حج يحج ماشيًا، ويتولى الإنفاق على عدد كبيرويذكر المؤرخون أن الرشيد سأل الإمام مالك في هدم الكعبة وزيادتها إلى بناء عبد الله بن الزبير، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبةللملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها، فترك الرشيد الكعبة كما هي.

وبقيت الكعبة على بناء الحجاج بن يوسف، وكان المسلمون يدعمون البناء كلما اعتراه الوهن، حتى كانت العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٣٦٦.

السلطان سليمان سنة ٩٦٠هـ،تم العمارة الترميمية التي حدثت في عهد السلطان أحمد سنة ١٠٢١هـ. ولما تولى الخليفة العباسي الأمين، بعد وفاة أبيه الرشيد، علم أن الذهب الذي حلى به الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قد دق، فبعث أحد عماله، وأعطاه ثمانية عشر ألف دينار ليضربها صفائح على باب الكعبة. وخلع هذا العامل ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها دنانير الأمين، وضرب الصفائح والمسامير وحلقّي الباب والقبة، وأصبح ما على الكعبة من الذهب ثلاثة وثلاثين ألف مثقال"[١]".

إعادة بناء الكعبة في العصر العثماني:

حينما تولى السلطان سليمان العثماني «سنة ٩٦٠ هـ» غير سقف الكعبة، كما اهتم السلطان أحمد «١٠٢١ هـ»بترميمالكعبة. حتى إذا كانت سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولًا استمرت يومين،ودخلت مياههاإلى المسجد الحرام والكعبة، حتى إذا انحسر الماء ضعفت جدران الكعبة، وخاصة الجدار الشمالي والشرقي والغربي. وأمر أمير مكة بإخراج القناديل الذهبية العشرين، وتقدم مع أهل مكة ينظفون الكعبة من الأحجارالمتساقطة، واحتاروا فيما يفعلون، ورأوا الرجوع إلى السلطان العثماني.

تألم المسلمون في أرجاء العالم الإسلامي مما أصاب الكعبة، ولم ينتظر والي مصر محمد باشا الألباني ما يشير به السلطان العثماني مراد الرابع، حتى لا يستفحل تصدع الكعبة،ولاقتراب موسم الحج، فبعث بمندوبين عنه إلى مكة.

وعادت السيول مرة أخرى، مما أدى إلى ازدياد تصدع الجدار الغربي، ولذا استقر الرأي على هدم ما بقي من جوانب الكعبة، ولم يقع خلاف إلا على

---

(١) العمري: مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٩.

ركن الحجر الأسود. ولكن المهندسين رأوا أن هذا الركن يوشك أن ينقض كل ذلك، ولذا كف القوم عن التردد، ورأوا هدم البيت كله، ليقيموا بناءه ثانياً قوياً.

قام بعمارة البيت جماعة من المهندسين والعمال المصريين، واستمر البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ، وانفقوا في سبيل ذلك أموالًا كثيرة، ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التي بنى بها ابن الزبير الكعبة إلا ما وجدوه ما يزال صلباً قوياً. أما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره.

ثم جاء دور إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، وكان هذا الحجر قد أصابه بعض التصدع في عهد ابن الزبير، فعالجوه إذ ذاك بتقويتهبسيورمنالفضة.

ولما تم إعادة بناء الكعبة، كتبوا بذلك محضراً أرسلوه إلى مصر، فيه شهادة المكيين محسن عمارة الكعبة، وفي ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود في هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى، فقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة وأنفقت ستة عشر ألفاً من الحنيهات"[١]".

وفي سنة ١٢٧٣ م أرسل السلطان العثماني عبد المجيد إلى الكعبة ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها الآن.

---

١ الهجرسي: كتاب الحج ص ٣٤.

١٧- كسوة الكعبة على مر العصور

أول كسوة:

كان أول من كسا الكعبة هو "تبع أبو كرب أسعد" الملك العربي اليمني الحميري ويروي العمري" [١]" أن تبعاً رأى في نومه أنه يكسو الكعبة، ولذا حين مر بمكة راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة، حقق رؤياه، وكسا الكعبة وجعل لها ياياً ومفتاحاً. ويذكر العمري أنه بدأ يكسوها بالمسوح والأنطاع، ثم خشي أن يؤثر ذلك في بناء الكعبة، فكساها«الملاء والوصائل»، وهي ثياب موصله من ثباب اليمن، وأنشد تبع حين كسا الكعبة:

وكسونا البيت الذي حرّم اللـــ ـــــه ملاء معضـــداً وبرودا

فأقمنا من الشهر عـــــشراً وجعلنا لبابه اقليـــــــدا

ونحرنا بالشـــعب ســـتة ألف فترى النـاس تحرهن ورودا

ثم ســـرنـا عنـه نؤم ســـهيلا فرفعنا لواءنا معقـــــــودا

وتبعه خلفاؤه، فكانوا يكسونها بالجلد والقياطي "وهو قماش مصري" زمناً طويلًا، ثم أخذ الناس يقدمون إليها هدايا من الكساوى المختلفة، فيلبسونها على بعضها، فكان إذا بلي ثوب وضع عليه ثوب آخر، حتى جاء قصي بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المال

لكسوتها سنوياً، واستمر أبناؤه بعده، على هذا التقليد. وكان أبو ربيعة اين المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة، وقبائل قريش تكسوها أخرى، فسمي بذلك

---

١ الهجرسي: كتاب الحج ص ٣٩.

العدل، لعدله بين قبائل قريش في كسوة الكعبة"[1]".

وروى العمري"[1]" أن خالد بن جعفر بن كلاب كان أول من كسا الكعبة بالديباج، وممن كسوها بالديباج أيضا نتيلة بنت جناب، أم العباس ابن عبد المطلب وكان العباسي قد تصل الطريق وهو صغير، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج.

كسوة الرسول والخلفاء:

روى ابن هشام"[2]" أن الكمية في عهد الرسول كانت تكسى بالقباطي، وهي ثياب بيض كانت تصنع في مصر، ثم كسيت بالبرود وهي ضرب من ثياب اليمن، ثم قام بكسوة الكعبة كل من عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالله بن الزبير، وكساها معاوية بن أبي سفيان بالديباج مرتين في يوم عاشوراء. ثم كساها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الحديدة فوق الأكسية القديمة حتى إذا تولى الخليفة العباسي المهدي، شكا إليه سدنة الكعبة، إذ خشوا أن يؤثر تكاثر الأكسية في بناء الكعبة، فأمر المهدي برفع الأكسية القديمة، وأبدها بكسوة جديدة كل سنة، وأصبحت سنّة تتبع طوال العصور التالية.

وقام الخليفة العباسي المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرات، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطي يوم ملال رجب والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان"[3]".

---

١ مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٩.

٢ سيرة ابن هشام جـ ١ ص٢١١.

٣ مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٠.

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود، حتى إذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة أخرى حكام اليمن، ثم إنفرد حكام مصر بكسوة الكعبة.

الكسوة المصرية للكعبة:

أمر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، بعد فتحيه مصر سنة ٣٦٢ هـ "٩٧٢ م" بعمل كسوة للكعبة، لينافس خلفاء بغداد العباسيين، وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر، ومنها مائة وأربعة وأربعون شبراً، وكان في حافائها اثنا عشر هلالًا ذهبياً، في كل هلال أترجة ذهبية، وفي كل منها خمسون درة تشبه بيفي الحمام في الكبر،كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق. وقد نقش في حافتها الآيات التي وردت في الحج، والآية ٩٥ من سورة آل عمران، والآية ٣ من سورة براءة، بحروف الزمرد الأخضر، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة، وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك"[١]".

تحدث العمري"[٢]" عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال :«وهي الآن تكسي في العام مرة واحدة في وقت الموسم، وتحمل إلى الكعية من الخزانة السلطانية بالديار المصرية، صحبة الركب فيتولي ذلك أمراء الركب. ويحضرون بأنفسهم فتكسى ويأخد الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها، ويأخلون في كل قطعة منها أوفر الأعراض، وتحمل إلى سائر البلاد للبركة... ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، صعدت أنا وأمراء الركب المصري لتلبيس الكعبة الشريفة، حتى كنا على سطحها، فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض، ومن جوانبه جدر فصار فيها حلق لمرابط الستور، تجر فيها الكسوة

---

١ ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٤

٢ مسالك الأبصار جـ١ص١٠٠.

بحبال ثم تربط في تلك الحلق».

ووصف الرحالة ابن بطوطة[1] كسوة الكعبة فقال: وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم فوضعت في سطحه. فلما كان اليوم الثالث بعد النحر أخذ الشيبيون في أسبالها على الكعبة الشريفة. وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض "جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً". الآية. وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس، والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج إليه الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة».

وطوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت مصر ترسل الكسوة للكعبة سنوياً، وتتألف من ثماني ستائر من الحرير الأسود، وقد كتب عليه بالنسيج في كل مكان منه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وطول الستارة نحو ١٥ متراً ومتوسط عرضها خمسة أمتار وعدة سنتيمترات وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة فتربطان من أعلاها حلقات من الحديد، ثم تربطان إحداها بالأخرى بعرى وأزرار، فإذا انتهى تشبيكها كلها صارت كالقميص المربع الأسود.

ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى رتكا مركب؛ من أربع قطع مصنوعة من المخيش الذهب مكتوب

---

١ رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٣١.

فيه بالخط الجميل آيات قرآنية. ومكتوب على هذا الحزام من الجهة التي فيها باب الكعبة "بسم الله الرحمن الرحيم. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذيرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العظيم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم".

ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود "بسم الله الرحمن الرحيم. قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين أن آول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام براهيم"، "بسم الله الرحمن الرحيم. وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق".

ومكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكي: "ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق".

وكانت الكسوة تصنع في مصر سنوياً بدار فسيحة في حي الخرنفش بالقاهرة وكانت ميزانية هذه الدور في مطلع القرن العشرين حوالي ٤٥٥٠ جنيهاً.

ويتبع هذه الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها البرقع، وستارة باب منبر الحرم الشريف، وهي من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبي والفضي.

وحينما كانت تصل الكسوة من مصر إلى مكة تسلم للشيبي القائم بسدانة

الكعبة بإشهاد شرعي يحضره الكبراء والعلماء فتبقى في منزله إلى صباح يوم عيد النحر، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد إنزال الكسوة القديمة، ويكون المسجد خلوا من الناس لأن معظمهم يكون يمنيًا، ولايبقى في مكة منهم إلا نفر قليل.

أما الكسوة القديمة، فيرسل المقصب منها إلى شريف مكة، أما غير المقصب فيأخذه الشيبي فيبيعه للحجاج للتبرك"[1].

المحمل المصري:

وما دمنا نعرض لكسوة الكعبة، لا بد أن نعرض للمحمل الذي كان يحمل الكسوة إلى الكعبة بمكة، ويبدأ تاريخ المحمل إلى حوالي سنة ٦٤٥هـ. فقد رحلت شجرة الدر، زوجة السلطان الأيوبي الأخير الصالح أيوب،إلى مكة لأداء فريضة الحج، فركبت هودجًا، واحتفل بسفرها احتفالًا شائقًا، وأصبح ذلك سنة متبعة سنويًا. وحذت بعض الأقطار الإسلامية حذو مصر، فكانت تبعث محملًا مشابًها في موسم الحج، حتى توقفت هذه العادة أخيرًااكتفاء بإرسال الكسوة إلى الكعبة.

اهتم الفاطميون بالمحمل، وبلغت نفقاته أكثر من مائتي ألف دينار، واستمر الاهتمام به في عصر المماليك، وكانت وظيفة أمير الحج في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة، وكان صاحبها مرشحًا لأن يكون حاكمًا للقاهرة، وهو المنصب الذي يلي منصب السلطان المملوكي مباشرة. وقد بلغ من كبار ملوك دولة المماليك للمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله واستمر أمراء مكة يقبلونه

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٠.

حتى أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣هـ.

وفي القرن التاسع عشر، كانت القاهرة تحتفل بخروج المحمل. فيسير الجمل الحامل للهودج،وحوله وأمامه الجنود الراكبة والراجلة، حتى ينتهي الموكب إلى ميدان القلعة، حيث يحتشد وجوه القوم. وتطلق المدافع تحية للمحمل، ثم يتابع الموكب سيره إلى العباسية، حيث يتفرق الناس وينزل ركب المحمل إلى خيامهم في فضاء بالعباسية، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به. ثم يرحل المحمل من العباسية إلى السويس على قطار خاص، ومنها بحرًا إلى جده، ثم إلى مكة.

وعند عودة المحمل كانت الحكومة المصرية تحتفل به رسميًا، ويسير الموكب من العباسية إلى القلعة، وتطلق المدافع. وتحفظ كسوة المحمل بمخزن وزارة المالية، وكانت تبلغ نفقات المحمل في مطلع القرن العشرين نحو ٥٠ ألفًا من الجنيهات المصرية.

وكان من ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساويوالحلوى، ويقوم بتوزيع الحلوى والكساوي التي كانت ترسل إلى أهل مكة، ثم استعيض عنها بأثمانها، وكان يخرج معه موظف يسمى «مأمور الذخيرة» في عهدته كمياتكبيرة من «البقصمات» ليسد الحاجة إذا قلت الأقوات بمكة. وكان للمحمل عشرون جملًا تحفظ في مكان خاص ببولاق ويتولى شراءها موظف يدعى «شيخ الجمل»"[١]".

(١)دائرة المعارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٢.

١٨-وصف الكعبة

وصف العمري للكعبة:

وصف العمري الكعبة في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، كما رأها حينما أدى فريضة الحج سنة ٧٣٨ هـ، فقال «فأعلم أن الكعبة، البيت الحرام مربعة البنيان في وسط المسجد. ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعًا، وعرض الجدار، وجهتها الآن، أربعة وعشرون ذراعًا، وهو الذي فيه بابها، وعرض مؤخرها مثل ذلك، وعرض جدارها الذي يلي اليمين، وهو فيما بين الركن اليماني والركن العراقي، وهو الذي فيه الحجر الأسود، عشرون ذراعًا. وإلى وسط هذا الجدار كان يصلي النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة. وعرض جدارها الذي إلىالشام، وهو الذي فيما بين الركن الشامي والركن الغربي، وأحد وعشرون ذراعًا، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب في الحجر. ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعًا.

وعرض باب الحجر الشامي خمسة أذرع إلا شيئًا يسيرًا، وعرض بابه الغربي ستة أذرع إلا شيئًا يسيرًا، وجدار الحجر مدور من بابه الشامي إلى بابه الغربي كالطيلسان،وعرضه ذراعوارتفاعه من الأرض أربعة أشبار. والحجر الأسود في الركن العراقي المقابل لزمزم وهو على سبعة أشبار من الكعبة . وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض ، وعلوه ستة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع .

وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع، ويسمى هذا الموضع الملتزم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه، ثم التفت فرأى عمر فقال: ها هنا تسكب العبرات. ومن الباب إلى مصلى آدم

عليه السلام حين فرغ من طوافه وأنزل الله التوبة وهو موضع الخلوق،ومن ازارالكعبة، أرجح من سبعة أذرع. وكان هناك موضع مقام ابراهيم ...

وبين موضع الخلوق –وهو مصلى آدم عليه السلام – وبين الركن الشامي ثمانية أذرع، ومن الركن الشامي إلى اللوح المرمر المنقوش في الحجر الذي بنى هناك ابن الزبير ركن إبراهيم، وهو على قواعد إبراهيم عليه السلام، تسعة أذرع.

وفيما بين الحجر إلى مقام إبراهيم خمسة وعشرون ذراعًا، ويسمى ذلك الحطيم، لأنه يحطم الذنوب أي يسقطها ... وفيما بين الركن العراقي –وهو الذي فيه الحجر الأسود –إلى مصلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة، عشرة أذرع ... وبين الركن اليماني وبين الباب المسدود في ظهر الكعبة أربعة أذرع. ويسمى ذلك الموضع المستجار من الذنوب . و عرض الباب خمسة أذرع ، وارتفاعه سبعة أذرع. وبينه وبين الركن الغربي ثلاثة عشر ذراعًا، وبين الركن الغربي وأخر قواعدإبراهيم –وهناك اللوح المرمر المنقوش – أزيد من سبعة أذرع وإلى هناك بنى ابن الزبير"[1]".

وصف ابن بطوطة الكعبة:

كان مولد الرحالة ابن بطوطة في سنة ١٣٠٤م وتوفي سنة ١٣٧٧م وقد زار مكة خلال رحلته الأولى «١٣٢٥ – ١٣٤٩م». ووصف الكعبة كما شاهدها،فقال: والكعبة مائلة في وسط المسجد، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعًا، من الجهة الرابعة، التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعًا، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرًا، وكذلك عرض الصفحة

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٢ – ١٠٤.

التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي. وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرًا، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي. وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبرًا والطواف إنما خارج الحجر.

وبناؤها بالحجارة الصم السمر، وقد ألصقت بإبداع الإلصاق وأحكمه وأشده، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان. وباب الكعبة المعظمة في الصفح"١" الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار. و ذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرًا ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرًا، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مسطح بصفائح الفضة، بديع الصنعة،وعضادتها وعتبته العليا مصفحات بالفضة. ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ....

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الأخر أربع خطى. وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي.

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض، وهي تتلألأ عليها نورًاواشراقًا، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله

---

(١) الصفح: الجهة.

الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم. ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبدًا ليلًا ولا نهارًا، ولم يذكر أحد أنه رأها قط دون طائف، ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران، وتجد الحمام يطير إلى أعلى الحرم كله، فإذا الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها»"[1].

وصف الكعبة:

شكل الكعبة مربع تقريبًا، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة، ويبلغ ارتفاعها ١٥ مترًا وطول ضلعها الذي فيه الميزابوالذي قبالته١٠أمتار و١٠ سنتيمترات، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر مترًا، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر. وسلمها الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند، وهو لا يوضع في مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفي الاحتفالات الكبرى وهي لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة.

وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الأسود، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمترًا من أرض المطاف.

يسمي العرب زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها، فيسمى الشماليبالركن العراقي، والغربي بالشامي، والقبلي باليماني، والشرقي بالأسود لأن فيه الحجر الأسود، وهو حجر صقيل بيضي الشكل غير منتظم، لونه أسود ضارب إلى الحمرة، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء،وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه،قطره،نحو ٣٠ سنتيمترًايحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات. والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو

---

(١) أنظر رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٠٥ – ١٠٦.

ما يلتزمه الطائف ، في دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالي الغربي من أعلاه الميزاب، ويقال له ميزاب الرحمة، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها، فغيره السلطان سليمان سنة ٩٥٩ بأخر من الفضة، وأبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بأخر من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية.وفي سنة١٢٧٣أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزابًا من الذهب وهو الموجود بها الآن.

وقبالة الميزاب يوجد الحطيم، وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتيالبيت الشمالية والغربية، ويبعدان عنهما بمترين وثلاثة سنتيمترات، ويبلغ ارتفاعه مترًا وسمكه مترًاونصف متر،وهو مبطن بالرخام المنقوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة. والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمترًا. والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت يسمونه حجرة إسماعيل، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريبًا في الكعبة في بناء إبراهيم. ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به.

أما شكل الكعبة من الداخل، فمربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها، وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى. وهذه الأعمدة موجودة من عهد عبد الله بن الزبير وهي غالية القيمة جدًا. ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها «الله جل جلاله». وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي صلى الله عليه وسلم . ويحيط ببناءالبيت من الداخل هامش من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين.

وداخل البيت ألواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئًا من العمارة. ويجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليه كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة.

تفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال، وفي ليلة الحادي عشر منه للنساء. وفي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول . وتفتح في العشرين من المحرم لتغسل . وفي أول جمعة من رجب الرجال ، وفي مسائه النساء ، وفي ليلة النصف من شعبان . وفي يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفي تاليه للنساء. وفي آخر جمعة من رمضان أيضًا، وفي نصف ذي القعدة للرجال وفي تاليه للنساء، وفي ٢٠ منه لغسلها، وفي الثامن والعشرين منه لإحرامها، أي بإحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المطاف، وتفتح في موسم الحج لمن يزورها من الحجاج، وتفتح أيضًا في نحو العشرين من ذي الحجة لغسلها.

ولغسل الكعبةاحتفال عظيم،يحضره كبار الشخصيات والحجاج، فيدخل شريف مكة فيصلي ركعتين، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص، ويسيل الماء من ثقب في عتبتها، ثم يغسلها بماء الورد، ثم يضمخ أرضها وحوائطها على ارتفاع الأيدي بأنواع الأدهان العطرية، وفي أثناء ذلك يكون البخور متصاعدًافيها. ثم يقف الشريف على الباب ويلقي على الحاضرين المكانس التي استخدمها في غسل الكعبة، فيتهالك الواقفون عليها، فمن حصل على واحدة عدهامن الذخائر التي لا تقدر بمال"[١]".

(١) دائرة المعارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٤٦.

مصادر البحث

القرآن الكريم

ابن الأثير: الكامل في التاريخ «بولاق ١٢٧٤هـ».

أحمد أمين: فجر الإسلام «الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٥٧».

أرنولد: «توماس و.» الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وأخرين "القاهرة ١٩٥٧».

أرفنج: «وشنجتون» حياة محمد ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي.

الأزرقي: أخبار مكة وما جاء منها من الأثار «مكة سنة ١٣٥٢هـ».

الأصفهاني: كتاب الأغاني «مطبعة التقدم، القاهرة ١٢٢٣هـ».

الألوسي: السيد محمود شكري.

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب «بغداد ١٣١٤هـ».

أوليري: دي ليسيO'Leary: De Lacy

Arabia before Muhamad; "London, ١٩٢٧"

براون:ادوارد ج. Edward, G.

Literary History of Persia, "London, ١٩٠٥"

ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار، في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» «المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة ١٩٣٩».

البلاذري: فتوح البلدان «القاهرة ١٣١٨هـ».

جودا علي: تاريخ العرب قبل الإسلام.

جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام «القاهرة ١٩٠٨م».

:تاريخ التمدن الإسلامي «القاهرة ١٩٥٨م»

جويدي: Guidi

L'Arabie Anteislamique, "Paris, ١٩٢١".

حتي : فليب.

: تاريخ العرب، ترجمة مبروك نافع «دار العالم العربي القاهرة»

ابن حزم : الفصل في الملك والأهواء والنحل «المطبعة الأدبية ١٣١٧هـ»

حسن إبراهيم حسن: الدكتور

تاريخ الإسلام الجزء الأول «القاهرة ١٩٥٧».

حسيني: «س. أ. ق.»

الإدارة العربية، ترجمة الدكتور ابراهيم أحمد العدوي «سلسلة ألف كتاب، القاهرة»

الخضري: محمد.

تاريخ الأمم الإسلامية «مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٧٦ هـ»

خودا بخش: الحضارة الإسلامية، ترجمة الدكتور علي حسني الحربوطلي. دائرة معارف القرن العشرين» القاهرة١٩٦٠».

دينية:«اتين»بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري.

محمد رسول الله، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود «القاهرة ١٩٥٩».

ابن عبد ربه: العقد الفريد «طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة»

ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير «طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة».

سيديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر «دار إحياء الكتب العربية» القاهرة ١٩٤٨.

شكري فيصل: الدكتور

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول «القاهرة ١٩٥٢».

الشيباني: تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول،«القاهرة ١٣٤٦هـ».

الطبري: تاريخ الأمم والملوك «القاهرة ١٩٣٩».

ابن طباطبا: الفخري بالأداب السلطانية «القاهرة».

على حسني الخربوطلي:الدكتور

عبدالمطلب جد الرسول«دارالمعارف،القاهرة»

المختار الثقفي «سلسلة أعلام العرب،القاهرة»

عبد الله بن الزبير «سلسلة أعلام العرب،القاهرة».

الدولة العربية الإسلامية «القاهرة، ١٩٦٠».

العبادي: «عبد الحميد» صور من التاريخ الإسلامي «طبعة الإسكندرية»

عباس محمودالعقاد: ابراهيم أبو الأنبياء «طبعة دار أخبار اليوم».

ابن عساكر: البداية والنهاية «مطبعة السعادة بالقاهرة»

عمر أبو النصر: الحضارة الأموية «بيروت ١٩٤٨».

العمري: مسالك الأبصار في الممالك والأمصار «دار الكتب المصرية ١٩٢٤»

ابن قتيبة: المعارف «المطبعة الإسلامية ١٩٣٥هـ».

: الإمامة والسياسة «القاهرة ١٣٢٥ هـ»

القلقشندي:صبح الأعشى في صناعة الانشا «القاهرة١٩١٧».

ابن كثير: البداية والنهاية « مطبعة السعادة بالقاهرة » .

كرد علي: «محمد».

الإسلام والحضارة العربية، الجزء الأول «القاهرة ١٩٢٤م»

الجزء الثاني «القاهرة ١٣٥٤ هـ».

الكلبي: كتاب الأصنام «دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م».

لطفي جمعه: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء «مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة»

محمد جمال الدين سرور:«الدكتور»

قيام الدولة العربية الإسلامية «دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٦».

محمد حسين هيكل:«الدكتور»

«حياة محمد «طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة».

محمد عزة دروزه: عصر النبي عليه السلام وبيئته.

محمود الهجرسي: كتاب الحج «طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية».

المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر «طبعة دار الرجاء بالقاهرة»

المقريزي: امتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع «القاهرة١٩٤١».

مولاي محمد علي: محمد رسول الله، ترجمة مصطفى فهمي «القاهرة ١٩٤٥».

ميور: "Muir: "Sir W.T.

The Life of Mohammed, "Edinburgh, ١٩٢٣".

ابن هشام: السيرة النبوية «القاهرة ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦م»

هل:«جوزيف».

الحضارة العربية، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوي «سلسلة الألف كتاب، القاهرة».

ياقوت الحموي: معجم البلدان «مطبعة السعادة ١٩٠٦».

اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي «النجف ١٣٥٨ هـ»

الفهرسْ

مقَدّمة ٥
١- روايات حول الكعبة قبل إبراهيم..... ٩
٢ - بناء ابراهيم وإسماعيل الكعبة ١٣
٣ - الكعبة بعد اسماعيل..... ٢٥
٤ . الكعبة في العصر القرشي ٣٤
٥ -أثر الكعبة فيإزدهار حضارة قريش ٤٣
٦ -أثر الكعبة في تطور مكة..... ٦٠
٧ - بئر زمزم ٧٠
٨ - الكعبة وحملة الفيل ٨٣
٩ - نذر عند الكعبة ١٠٤
١٠ - بشرى بمولد الهدى عند الكعبة..... ١١١
١١-الحج إلى الكعبة قبل الإسلام ١١٧
١٢-الكعبة قبيل الإسلام ١٢٧
١٣- الرسول والكعبة ١٣٥
١٤ - الكعبة قبلة الصلاة ١٥٩
١٥ - ابن الزبير يعيد بناء الكعبة..... ١٦٦
١٦-إهتمام الدول الإسلامية بالكعبة ١٧٩
١٧- كسوة الكعبة على مر العصور..... ١٨٤
١٨-وصف الكعبة ١٩١
مصادر البحث ١٩٧